العاوون

إسلام أبو شكير

رواية

https://t.me/riwayat2025

٢٧٠٥٣٩٩٣٢٠

الفصل الأول

(1)

كان مشغولاً بإصلاح الرفوف الخشبية في المطبخ. والواقع أنّ حالها لم تكن قد تردّت إلى الحدّ الذي يقتضي منه التدخّل بهذا الحماس، وفي هذا الظرف الخاص بالذات، لكنها طريقةٌ وُفّق إليها من دون تخطيط مسبقٍ للتحايل على الوقت، بحيث يمرّ بأدنى قدرٍ ممكنٍ من الثقل، والكثافة، واللزوجة، والضغط المؤلم على الأعصاب.

أنزل الطناجر، والمقالي، والصحون، والكؤوس، والقلب، وسواها من الأواني التي كانت عليها، وكوّمها على الأرض، ثمّ راح يتفقّد المسامير، وما وجده مرتخياً أعاد إحكامه؛ أمّا المسامير الصدئة، أو المكسورة فعمد إلى استبدالها. كما كان هنالك رفٌّ معوجٌّ بتأثير الرطوبة من جهة، والوزن الزائد الذي كان فوقه من جهةٍ أخرى، وقد وضعه جانباً، بعد أن أخذ مقاساته، وذلك لإحضار واحدٍ جديدٍ حالما يُتاح له الوقت بعد يوم، أو يومين كما قدّر، أو -في أبعد الاحتمالات- قبل عودة عامر مع المولود بالسلامة..

كان قد اصطحبها صباح هذا اليوم إلى بيت أهلها بعد أن ظهرت عليها أولى علامات الوضع. ودّ لو بقي معها، لكنّ سرحان شقيقها أقبل نحوه، وهو يضحك. قاده من يده، متذرّعاً بأنّه يريد أن يساعده في شراء بعض الأغراض الضروريّة والمستعجلة، وعندما أصبحا منفردين همس له:

- في حالات الولادة يجب أن يخلي الرجال البيت. لا يصحّ أن يبقى سوى النساء والأطفال..

ثمّ أضاف مكرّراً ضحكته نفسها:

- ولا تقلق.. سننتظر في مكانٍ قريب. في المقهى إن شئت. وهناك من سيأتي ويزفّ لنا البشارة..

لم يرُقْهُ اقتراح سرحان، فهو لا يحبّ المقاهي أصلاً، ثمّ إنّه قدّر أنّ الوقت سيطول عليه هناك بأكثر مما يحتمل. تخيّل المشهد: السجائر، وأكواب الشاي التي لا يعلم إلا الله عددها، والنقرات السريعة المتواصلة بالأصابع على الطاولة، والأعصاب المشدودة، والعينان المفتوحتان أبداً على الباب ترصدان الداخل والخارج، والخيالات المرعبة، والأحلام المهزوزة غير الواثقة، والأهمّ من ذلك كلّه الفراغ الذي لن يكون لديه ما يملؤه به..

احتمالاتٌ حسبها بدقّةٍ وبسرعة، فقرّر من فوره أن يجنّب نفسه آلام التعرّض لها. فضّل أن يكون لعبه مع الوقت في مكانٍ آخر، فأخبر سرحان أنّه سينتظر في بيته، وطلب أن تأتيه البشارة هناك..

لحسن الحظّ أنّ المطبخ كان أوّل ما خطر في ذهنه. خيارٌ اهتدى إليه في ما يشبه الإلهام، وقد اتّضح أنّه كان خياراً صائباً بالفعل، ففضلاً عن الرفوف، والمقالي، والصحون، والمسامير الصدئة التي استغرق في العمل بها بكلّ جوارحه، فقد سقط أحد الأكواب على الأرض، وعندما بدأ يجمع الشظايا جرح إبهام يده اليمنى. لم يكن جرحاً غائراً، إلا أنّ تنظيفه وضماده احتاجا إلى وقتٍ آخر شغل به جزءاً غير قليل مما كان مخصّصاً للانتظار. وبذلك كان لهذا التراكم في المهامّ، المحسوب وغير المحسوب، المؤلم وغير المؤلم، دورٌ مؤثّر في النهاية في خروجه منتصراً -في هذه الجولة على الأقلّ- في حربه المفتوحة مع الوقت، خصمه المتوحّش الذي لا يرحم.

كان قد أنهى للتوّ تسجيل مقاسات الرفّ المعوجّ، ونحاه جانباً، والتفت إلى رفٍّ آخر لاحظ أنّ الدعامة المعدنيّة تحته مثبّتةٌ إلى الحائط بمسمارٍ واحد، في حين كان يجب أن يكون هنالك مسمارٌ ثانٍ، عندما وصل إليه صوتُ أحد الصّبية يصرخ:

- عقي صبحي.. عقي صبحي..!

التقط في صوت الصبي ارتعاشةً غير طبيعيّة. لم يكن مجرّد نداء، بل شيئاً أقرب إلى الإنذار. والوقت الذي

نجح طوال الساعات الفائتة في المطبخ في ترويضه، وجعله يمرّ خفيفاً هادئاً، بل يكاد يكون غير محسوس، هبط الآن بكامل ثقله، ودفعةً واحدةً، فوق صدره، ملقياً به في دوّامةٍ من الشكوك والهواجس الغريبة التي ظلّ إلى ما قبل لحظات واثقاً من قدرته على تجنّبها، وإنقاذ نفسه من تبعاتها المؤلمة.

رأى الصبيّ ماثلاً أمامه، بوجهه المصفرّ، وخيوط العرق المتدلّية على جبهته، يلهث، ويحاول أن يقول شيئاً، لكنّ حنجرته تعانده، ولا تستجيب له كما ينبغي، فتخرج الكلمات ممطوطةً، أو متقطّعةً، أو متداخلةً مع بعضها، بحيث تتحوّل إلى مجرّد أصواتٍ مفرغةٍ من أيّ معنى، أو لعلّها مزدحمة بالمعاني، ولكنّ بما يفوق قدرته على ملاحقتها، وتبيّن ما هو مفيدٌ منها..

قاطعه صبحي:

- ما لك يا ولد؟ ما الذي حدث؟

تمالك الصبيّ نفسه، وقال، وهو يبتلع ريقه محاولاً أن تخرج الكلمات بأقصى ما يستطيع من الوضوح:

- ولد، عمّي صبحي.. ولد..

وحارّ صبحي. لم يذرِ بمَ عليه أن يشعر، أو يفعل! هل يفرح؟ هل يرقص؟ هل يعانق الصبيّ؟ هل يهنّئه بأغلى هديّة حلم بها إكراماً له؟ ولكن، ما بالُ الصبيّ يقولها بكلّ هذا الفزع، والارتباك، والذهول؟!

ألقى من يده الكفاشة التي كان يريد أن يقتلع بها المسمار من الجدار، واقترب من الصبيّ. نظر في عينيه محاولاً أن يقرأ فيهما شيئاً. نظر عميقاً وبعيداً، فلم ير إلّا الخواء..

- عامر..

خاطرٌ شيطانيٌ تحرّك في أعماقه فجأةً، ودفع باسم زوجته نحو شفتيه. وكاد ينطقه فعلاً، غير أنّه قاوم. ابتلع الكلمة، ثمّ نفض رأسه كأنّه يطرد حشرةً سامّةً كانت تحوم حوله، متحيّنةً الفرصة كي تنقضّ عليه، وتثقب جمجمته بخرطومها الطويل الأجوف، ثمّ تمتصّ كلّ ما فيها..

تخلّص من الفكرة سريعاً، وعاد إلى الصبيّ. اقترب منه خطوةً أخرى، ووضع يده على كتفه. وفعلت هذه الحركة الصغيرة فعلها، فبدا أنّها هدّأت من روعه، وأشاعت فيه قدراً من الطمأنينة أتاح للسانه أن ينطلق بكلمةٍ، أو كلمتين..

ابتلع الصبيّ ريقه ثانيةً، وقال بصوتٍ خفيضٍ مهزوز:

- خالتي عامر.. أنجبت ولداً..

- وخالتك؟ هل هي بخير؟

- بخير عمّي صبحي...

وكان على وشك أن يكمل، لكنّ سرحان اقتحم المكان فجأةً.

- تعال يا صبحي.. تعال..

- إلى أين؟

- تعال الآن، وسأخبرك..

(2)

كان الأمر شاقاً ومجهداً، لكنه أثمر في نهاية المطاف..

تمكّن صبحي من رؤيته على ارتفاع أكثر من خمسة عشر متراً بين أغصان شجرة الكينا في الساحة المجاورة لبيت أهل زوجته، عارياً، وملتفاً على نفسه كقطةٍ، أو جرذ. لقد احتاج إلى وقتٍ حتى التقطته عيناه، فصِغَرُ حجم الولد، والمسافة البعيدة التي تفصل بينهما، والإضاءة التي بدأت تخفّ بينما الشمس تهبط باتّجاه الأفق، إضافةً إلى الفوضى التي تعمّ المكان، وخليط الأصوات العالية التي كانت تهاجمه من كلّ جانب، فتفقده القدرة على التركيز؛ كلّ ذلك جعله غير واثقٍ من شيء.

كانوا يحيطون به، وأصواتهم تصمّ أذنيه، وهم يحاولون إرشاده، بتوجيه نظره إلى هذا الغصن، أو ذاك من الأغصان الكثيفة المتشابكة الغارقة في فوضى الأضواء والظلال..

- إلى اليمين يا صبحي. إلى اليسار. الأسفل. الأعلى. خلف ذلك الغصن المكسور. تعال من هذه الجهة. انظر هناك. هنا...

وكان يستجيب لهم جميعاً. يدوّر عينيه في كلّ الاتّجاهات بحسب ما تشير إليه سبّاباتُ أكفّهم الممدودة، ويثبّت نظره هنا وهناك، ويلتفت يميناً ويساراً، ويتراجع خطوةً إلى الوراء، ثمّ يتقدّم أخرى إلى الأمام. وكان في كلّ مرّةٍ يكتشف أنّه أخطأ الهدف، فيغمره إحساس خفيّ وغامضٌ بالراحة؛ لأنّه يجد في ذلك إثباتاً لوجهة نظره التي كوّنها لنفسه منذ اللّحظات الأولى حول استحالة الأمر، وكونه مجرّد وهمٍ قاد إليه خبلُ ضرب رأس أحدهم، وأعماه عن رؤية الحقيقة كما هي؛ أو مزاحٍ ثقيلٍ سمج بدأه واحدٌ من أولئك الشباب العابثين، ثمّ صدّقه الآخرون وتناقلوه غباءً، أو تسرّعاً، أو جهلاً، أو حتى خبثاً، أو رغبةً رخيصةً في تزجية الوقت بما يسلّي ويثير، ولو على حساب آلام البشر ومشاعرهم..

وكاد يتركهم ويمضي..

لكنّه رآه أخيراً..

على خلاف ما كان يتوقّع، أو يتمنّى، كان هناك حقّاً، تحيط به أغصان شجرة الكينا، هادئاً، لا يتحرّك، وصامتاً أيضاً..

بهت صبحي، ولم يجد ما يقوله. لا تسمح له المسافة بينهما بالنظر الدقيق إليه، والتأكّد من حالته، ولكنّه تخيّله، وهو هناك في الأعلى، بعينيه المغمضتين، وأطرافه الباردة المرتخية، وصدره الذي يرتفع وينخفض بإيقاعٍ بطيءٍ متقطّعٍ فصدراً على الدوام خشخشةٌ قادمةٌ من الأعماق، كما لو أنّ جوفه محشوٌّ بقطعٍ من الحديد الصدئ المتهالك..

- ستكون معجزةً لو نجا..

ردّد صبحي بينه وبين نفسه منصاعاً لقوّةٍ قاهرةٍ كانت تضغط عليه للاعتراف بحقيقةٍ مُرّةٍ لا يريد الاعتراف بها، لكنّه مع ذلك لا يملك شيئاً يفعله أمام سطوعها، ونصاعتها، وشدّة وضوحها...

لم تُجدِ نفعاً الكلماتُ المؤثّرة التي كان يتلقّاها من هؤلاء الذين يحيطون به؛ كلماتُ المواساة، والتعاطف، والحثّ على التجلّد، والصبر، وحسن الظنّ بالله..

قضاء الله يا صبحي.. لا تحزن.. خير المؤمنين الصابرون.. وحد الله.. سيفرج يا صبحي...

وكان يعلم أنّها مجاملاتٌ سخيفةٌ وكاذبةٌ لا معنى لها، وأنّ احتشادهم هنا، وتدافعهم، والضجّة التي يثيرونها، لا علاقة لها بمشاعره على الإطلاق، وإنّما هي لمجرّد الفرجة لا أكثر..

يتكلّمون كثيراً، ويصرخون، ويشهقون، ويردّدون آياتٍ من القرآن، وحكماً، وأمثالاً، وقصصاً قديمةً مكرورةً،

وأحياناً يلعنون، ويشتمون، بل لقد تناهت إلى سمعه ضحكةٌ أطلقها أحدهم. آذته في البداية، ثم تمكّن من تجاهلها. لم يكترث لها، ولم يرهق نفسه بالبحث عن صاحبها، ولا بمعرفة سببها. تجاوزها، مستغرقاً في استعراض النهايات المحتملة لهذا الذي يجري..

لم يرجّح احتمالاً على آخر. كلّ النهايات ممكنة، وبمرور الوقت بدت له كلّها مقبولةً أيضاً. ليس لديه ما يفعله إزاء أيٍّ منها. الأمر برمّته خارج الإرادة..

ما كان يهمّه ويستحوذ على تفكيره هو هذا الطفل العالق هناك. ومرّةً أخرى تخيّل عينيه المغمضتين، وأطرافه المرتخية، والحديد الصدئ في جوفه.

- لن ينجو..

قالها بثقة أكبر هذه المرّة.

أمّا سرحان الذي كان إلى جانبه، فردّد حانقاً، وبقوّة صوتٍ، وحرارة أنفاسٍ، ومرارة شعورٍ، جعلت كلماته أقرب إلى الوعيد منها إلى أيّ معنى آخر:

- تلك العجوز الحمقاء.. كان عليها ألّا تفلته!

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية https://t.me/riwayat2025

(3)

لم تكد أمّ جعفر القابلة تقطع الحبل السرّيّ، حتّى انزلق من بين يديها. لقد انتبهت منذ لحظة خروجه من بطن أمّه إلى الزائدتين الغريبتين في ظهره. وقعت عيناها عليهما مباشرةً، فارتجفت يداها ارتجافةً خاطفةً، ثمّ امتدّت الارتجافة إلى سائر أعضاء جسدها. غير أنّها لم تتوقّف. واصلت سحب المولود، إلى أن أصبح بكامله بين يديها، حيث أحكمت قبضتها عليه.

حاولت أن تبعد عن ذهنها كلّ الأفكار السوداء التي استولت عليه، وأن تركّز في ما تبقّى أمامها من خطواتٍ لإتمام الولادة. أفلحت للحظة، ثمّ غلبها الفضول، فألقت نظرةً ثانيةً سريعةً إلى ظهر المولود. وارتجفت يداها كما في المرّة السابقة.

أخذت نفساً عميقاً ملأت به صدرها، ثمّ زفرته. وفي محاولةٍ أخيرةٍ للنجاة من عبث ذلك الشيطان في رأسها مسحت بكمّ ثوبها جبينها، على الرغم من أنّه كان جافّاً. وبعد أن تيقّنت من أنّ ما هو ماثلٌ أمامها ليس وهماً، قالت لنفسها:

- سبحانك ربّي..!

ثمّ أرادت أن تهوّن على نفسها، فافترضت أنّ ما تراه ليس سوى نوعٍ من التشوّه الذي يولد به بعض الأطفال، التشوّه الطبيعيّ المعتاد الذي لا يختلف كثيراً عن قدمٍ معقوفة، أو إصبعٍ زائدة، أو شفةٍ مشرومة، أو أذنٍ مفقودة، أو عينٍ بجفنين ملتحمين.. رأت حالاتٍ كهذه خلال عملها الذي طال قرابة عشرين عاماً.

في السنوات الأولى كانت تشعر بالرعب كلّما رأت حالةً من هذا النوع، ومع الأيّام تحوّل الرعب إلى شعورٍ بالشفقة لا أكثر تجاه المولود وما ينتظره من أيّامٍ قاسية، وتجاه أبويه والخيبة التي سيصابان بها. لكنّها أيضاً تعلّمت أنّ الحياة تعمل هكذا. لها قانونها الخاصّ الصعب الذي لا يمكن التحايل عليه، أو الوقوف في وجهه. يحدث أحياناً أن تخذل شخصاً في جسده، فتستقبله بعجزٍ ما، وعليه بعدئذٍ أن يتدبّر نفسه. التحدّيات كثيرةٌ في الحياة، ومنها ما يبدأ منذ اللّحظة الأولى، لحظة الولادة.

اكتفت بشعور الشفقة هذا، متجاهلةً ظهر المولود، وهاتين الزائدتين الغريبتين فيه، منصرفةً إلى ما هو أهمّ، ويجب القيام به سريعاً. ومن يدري، قد تكون مخطئةً. قد يكون العيب أهون ممّا تبادر إلى ذهنها. ستتأكّد من ذلك بعد قليل على أيّة حال.

استكملت مهمّتها في تحرير المولود من أمّه، وبدأت الخطوة الثانية في العناية بسرّته وتنظيفها وضمادها. وفي لحظةٍ تحرّكت الزائدتان على ظهره. بدتا كأنّهما ترفرفان.

أجفلت القابلة، وبدون أن تشعر ارتخت قبضتها، فانزلق الطفل منها، وارتطم بالأرض. أخذ الطفل ينتفض، ويطلق أصواتاً كالعواء. ومع ذلك لم تبذل جهداً لالتقاطه، لا لإهمالٍ، أو بلادةٍ في الإحساس، أو قصورٍ في البديهة حال بينها وبين المبادرة بفعل شيءٍ ما، بل لعجزٍ مفاجئٍ عن الإتيان بأيّ حركة. شيءٌ يشبه الشلل.

تركته يعوي، ويدور حول نفسه، وهو يصفّق بجناحيه، في حين خرجت الكلمات من شفتيها بدون إرادةٍ منها، كأنّ شخصاً آخر يسكنها هو الذي تكلّم:

- بسم الله الرحمن الرحيم...

لم يكن معها في الغرفة -إضافةً إلى عامر طبعاً- سوى جدّتي المولود: جدّته لأمّه التي كانت إلى جوارها لتساعدها في العناية به، وجدّته لأبيه التي كانت على الطرف الآخر من السرير عند رأس كنّتها.

انتبهت أمّ عامر إلى ما حدث، ففغرت فمها. لم تتمكّن حتّى من الصراخ، فاكتفت بضرب صدرها بكفّ يدها. نظرت إلى القابلة مستغيثةً، فوجدتها مذهولةً، وصامتةً، ومستسلمةً كأنّ الحياة فارقتها، ولم تدع لها من

العلامات الدالّة سوى أنفاسٍ تتردد في صدرها، فتعلو به وتنخفض، بإيقاعٍ لا يفتأ يتسارع مع كلّ لحظةٍ تمرّ.

أمّا جدّته الأخرى المشغولة بكتفها، تشدّ على قبضة يدها، وتمسح العرق الذي كان ينضح من جبينها، فقد راودها إحساس بأنّ شيئاً ما غير طبيعيّ يحدث، لكنّها لم تكن في موقفٍ يسمح لها بالسؤال، فاهتمامها كلّه كان موجّهاً نحو المرأة المتألّمة، متحاشيةً كلّ ما من شأنه أن يشعرها بأنّها وحيدةٌ ومتروكة.

على الأرض كان المولود ما يزال يدور حول نفسه، يعوي، ويرفرف بجناحيه، ثمّ ارتفع قليلاً. رأته القابلة وجدّته لأمّه، وهو يطفو في الهواء. وبتأثير الحركة المتسارعة لجناحيه تطاير رذاذٌ من الدم، والمخاط، وبقايا المشيمة التي لم يُتح لأمّ جعفر تنظيفها جيّداً، فسقطت قطراتٌ منه على وجه الجدّة. وكان ذلك كافياً ليحرّر الصرخة الحبيسة في حنجرتها.

دوّت الصرخة متجاوزةً جدران الغرفة، بكلّ ما تحمله من فزعٍ، ولوعةٍ، وذهولٍ، وفجيعة.

تركت النساء اللواتي كنّ ينظّفن المنزل استعداداً لاستقبال الضيوف المهنّئين الذين يُتوقّع وصولهم بعد ساعاتٍ أعمالَهنّ، وهرعنّ نحو الغرفة.

شعرنّ، وهنّ محتشداتٌ عند الباب المشرع، بدوّامة هواءٍ خفيفةٍ تعبر فوق رؤوسهنّ، كما شعرنّ بقطراتٍ من سائلٍ لزجٍ دافئٍ تصفع وجوههنّ، لكنّهنّ لم يكترثن للأمر، وواصلن اندفاعهنّ إلى الداخل للاطمئنان على المرأة ومولودها.

وبإشارةٍ صامتةٍ مرتبكةٍ بدرت من القابلة نحو الباب، فهمنّ أنّ الأمر يتعلّق بهذا الذي تجاوزهنّ قبل قليل، محلّقاً فوق رؤوسهنّ، فالتفتنّ إلى الخلف.

رأينه هناك، في الصالة.

بدا مضطرباً وخائفاً، يدور في الهواء مرفرفاً بجناحيه الصغيرين الرطبين. يتّجه إلى اليمين مرّةً، وإلى اليسار مرّةً أخرى. يرتفع حتّى يلامس السقف، ثمّ ينخفض حتّى يصبح قريباً من الأرض، ثمّ يرتفع ثانيةً.

يفعل ذلك برشاقةٍ، وخفّةٍ، وسرعةٍ تبعث على الدهشة، ومع كلّ حركةٍ يقوم بها كنّ يتلقّين رشقاتٍ من السائل اللزج الذي يغمره. يمسحن ما يسقط منه على وجوههنّ، وأيديهنّ، وأجزاء أجسادهنّ المكشوفة بسرعة، ويواصلن الركض خلفه كلّما ابتعد عنهنّ، ثمّ يتراجعن إلى الوراء رعباً كلّما رأينه يتّجه نحوهنّ، مطلقاتٍ خلال ذلك صرخاتٍ شعرنّ بها حادّةً وقاطعةً كأنصال السكاكين تحتزّ حناجرهنّ.

خطر لهنّ أنّه حمامةٌ، أو غرابٌ، أو خفّاشٌ، أو أيّ نوعٍ آخر من أنواع الطيور التي تضلّ طريقها أحياناً، فتدخل خطأً عبر نافذة بيتٍ مفتوحةٍ، أو بابٍ، ثمّ يباغتها ضيق المكان، فتفقد صوابها، وتتحرّك على نحوٍ من الطيش، والنزق، والذعر بحثاً عن أيّ مخرج.

خطر لهنّ ذلك، ولكنّ سرعان ما تبيّن لهنّ أنّ الأمر ليس هكذا على الإطلاق.

(4)

ما إن تبيّنت أمامهنّ حقيقة ما يجري، حتى تجاوزن خوفهنّ، واندفعن باتّجاهه. ضيّقن الخناق عليه، وهنّ يطاردنه من زاويةٍ إلى أخرى، وكِدْنَ ينجحن في محاصرته، لكنّهنّ لم ينتبهن إلى النافذة المفتوحة المطلّة على الشارع. وهكذا، استطاع أن يعبر منها شاقّاً طريقه إلى الخارج، تاركاً إيّاهنّ لأسئلةٍ غريبةٍ لم يجزْنها من قبل. شعرن بها تقفز داخل رؤوسهنّ، تقرع عظام جماجمهنّ، مشكّلةً دوّامةً لها طنينٌ لا يُحتمل، ولم يجرؤن -مع ذلك- على الاعتراف بوجودها صراحةً، خشية أن يتّهمن أنفسهنّ –قبل أن يتّهمهنّ أحد- بالجنون، أو الغباء.

وحدها زينب، خالته الصغرى ذات السبعة عشر عاماً، لم تتردّد. شقّت الباب، واندفعت تركض خلفه حافيةً، بثوبها البيتيّ الرقيق، والشعر المنسدل، والذراعين المكشوفتين، والصدر الطافح من الياقة الواسعة مفتوحة الأزرار، وربلتي الساقين الممتلئتين العاريتين. لم تبالِ بشيءٍ من ذلك. لم يخطر في ذهنها أن تتريّث إلى أن تستر نفسها. ركضت فقط. ولحسن الحظّ أنّه لم يبتعد كثيراً. كان قد حطّ على الرصيف المقابل للبيت.

خفّفت من اندفاعها، وتحوّل الركض السريع إلى خطواتٍ حذرةٍ متمهّلةٍ، وما إن أصبحت على بعد أمتارٍ منه حتى توقّفت. اكتفت بنظراتٍ مرتابةٍ متوتّرةٍ رمقته بها، لتتأكّد من أنّه استقرّ في مكانه أخيراً، ثمّ واصلت تقدّمها، ولكنْ بخطواتٍ أبطأ، نصف خطوةٍ كلّ مرّة، حابسةً أنفاسها، وحريصةً على ألّا تبدر منها أيّ حركةٍ يمكن أن تثير فيه الذعر، وتدفعه إلى الهرب ثانيةً.

ولوهلةٍ خُيّل إليها أنّه سيهاجمها.

طفلٌ بجناحين! ما الذي يمنع أن يكون له منقارٌ ومخالبُ أيضاً؟!

لم تر شيئاً من ذلك، لكنّها افترضت أنّه يمكن في أيّ لحظةٍ أن يتحوّل أنفه مثلاً إلى منقارٍ معقوفٍ مدبّبٍ، وأن تنمو أظافره لتصبح مخالب حادّةً قاطعةً.. وافترضت كذلك أنّه سينقضّ عليها، ليفقأ لها عينيها، أو يشقّ شفتها.

كان يمكن لخيالاتها الدمويّة المرعبة تلك أن تمضي إلى ما هو أبعد من ذلك وأشدّ إثارةً؛ كأن ينفث ناراً من فمه باتّجاهها ليحرق جسدها محوّلاً إيّاه إلى قطعة فحمٍ متقدةٍ، أو أن يتضاعف حجمه ألف مرّةٍ، ليصبح عملاقاً يسحقها تحت قدميه، أو أن يرميها بنظرة ساحرٍ شرّيرٍ فتنقلب حجراً بارداً أصمّ.

لكنّ بكاءه الذي كان يبكيه، والذي يشبه العواء، حملها على صرف كلّ صور الرعب الوهميّة تلك، والاطمئنان إلى وداعة الطفل، وضعفه، وفداحة المحنة التي يكابدها.

عواؤه كان يعتصر قلبها في الحقيقة. لم تبالِ بجناحيه المفرودين على الرغم من غرابتهما، ولا بجلده العاري المتسخ، ولا برأسه الأصلع الصغير الذي لا يكفّ عن الاهتزاز، ولا بمنقاره الضخم الذي توهّمته قبل قليل، أو مخالبه المشحوذة كالسكاكين، أو عينيه الشرّيرتين والشرر المتطاير منهما. كلّ ما كان يستثيرها هو هذا العواء الطويل الممتدّ الذي يخرج من فمه حارّاً وواخزاً، متّجهاً إلى القلب مباشرةً، مغرقاً إيّاه بسيلٍ من الحزن والألم، ما يجعلها ترتعش، وأحياناً تختنق.

متجاهلةً ذلك كلّه، ومقاومةً كلّ ما كان يقيّد قواها الجسديّة من يأسٍ وإحباط، واصلت التقدّم.

لم يبدُ عليه أنّه يراها. كانت عيناه مصوّبتين نحوها، لكنّ نظراته؛ إذ تصطدم بها، تتجاوزها بعدئذٍ بطريقةٍ ما. تخترقها تقريباً. شعرت بذلك، ولهذا تحسّست جسدها كما لو أنّها تريد التأكّد من أنّها ليست شفّافةً، أو مصنوعةً من دخانٍ، أو ضباب.

عند نقطةٍ معيّنةٍ، حيث أصبحت المسافة بينهما أربع خطوات، أو خمساً، تمنّت لو أنّها اصطحبت معها قطعة قماشٍ، سترةً، أو ثوباً، أو كيساً، أو خرقةً من تلك التي يستعملونها للمسح. كان بوسعها أن تلقيها فوقه، بحيث تشلّ حركته، ثمّ تمسك به.

ولما كان ذلك متعذراً؛ إذ لم يسمح لها الموقف المباغت بالتفكير به، والاستعداد له، فقد غامرت بخطوتين إضافيتين صغيرتين تقدمت بهما إلى الأمام. أخذت نفساً عميقاً استعداداً للانقضاض عليه، بعدّهِ الخيار الوحيد المتاح أمامها.

انقطع عواؤه مع توقفها. أراحها ذلك قليلاً. أزاح عن قلبها ثقلاً كان يربكها، ويشوّش عليها.

- لا تخف! أنا خالتك.. اسمي زينب.. لن أؤذيك.. اهدأ فقط.

توسلت إليه بصوتٍ خفيضٍ أقرب إلى الهمس، مادّةً ذراعيها نحوه. كان لديها أملٌ في أن يفهمها بطريقةٍ ما..

- ها.. ألن تأتي معي؟ أمك تريد أن تُرضعك.. أنت جائع، أليس كذلك؟

ثم قرّبت يدها منه. لمسته تقريباً، أو هكذا خُيّل إليها. كان ما يزال رطباً ودافئاً.

كانت على وشك أن تمسك به، عندما انتفض فجأةً فارداً جناحيه. صفّق بهما، ثم حلّق في الهواء، مطلقاً -من جديد- عواءه الحادّ الواخز، ليحطّ على شجرة الكينا القريبة.

https://t.me/riwayat2025 روايات وكتب عربية وعالمية

(5)

أراد صبحي أن يناديه، ثمّ تذكّر أنّه ما زال بلا اسم.

لقد تسرّع كثيراً، فلم يمنحهم وقتاً لاختيار اسمٍ ينادونه به، وهكذا حكم على نفسه بأن يربض في وكره العالي البعيد ذاك بدون أن يجد من يخاطبه بغير تلك الأصوات التي يهشّون بها كلاب الشوارع، أو الحمير السائبة، أو أيّ حيوانٍ شاردٍ آخر.

- هيييييييييييييييه!

لقد شقّ على صبحي ألّا يتمكّن حتى الآن من إلقاء نظرةٍ أولى إلى ابنه، وألّا يحتضنه، وألّا يمسح على رأسه، وألّا يشمّ رائحته، وألّا يداعبه. حقوقه الطبيعيّة والبديهيّة كأبٍ يعيش الأبوّة أوّل مرّة. لكنّ الأصعب حقّاً أن يكون نداؤه الأوّل له هكذا، بهذه الطريقة المهينة الباردة التي تخلو من أيّ إحساس.

- هيييييييييييييييه؟!

غصّ بالكلمة. شعر وهو يقذف بها من فمه كأنّه يتقيّأ رصاصاً مغلياً، ومع ذلك كرّرها:

- هيييييييييه هييـــه هيييييه!

وكما لو أنّ الولد كان في غيبوبةٍ وأفاق منها، فقد رآه الجميع يلتفت برأسه نحو أبيه، ثمّ سمعوا عواءه. كان عواءً واهناً، ومتقطّعاً، ومبحوحاً، لكنّه مسموعٌ وواضح. صمتوا فجأةً! شبّوا على رؤوس أقدامهم، ومطّوا أعناقهم باتّجاهه، مظلّلين أعينهم بأكفّهم اتّقاءً لضوء الشمس التي -وإن كانت في طريقها نحو الغروب- ما تزال متوهّجةً، وقادرةً على إخفاء الكثير من التفاصيل عندما يكونون في مواجهتها.

حركته الصغيرة تلك أحيت في قلب أبيه بذرة أملٍ؛ فالولد ما زال حيّاً على الأقلّ. ابتسم، ولوّح له بكفّه، لكنّ الولد أشاح بوجهه عنه ثانيةً، ثمّ لوى رقبته، عائداً إلى غيبوبته، مستغرقاً فيها. وبدورهم عادوا -هؤلاء الذين احتشدوا في المكان، وما زالت أعدادهم تتزايد ساعةً بعد ساعة- إلى أسئلتهم الصاخبة الساخنة التي لا جواب لها.

أشدّ ما كان يقلقهم ويثير حيرتهم هو المصير الذي ينتظر الطفل...

تضاربت الاقتراحات للوصول إليه وإنقاذه، وتعدّدت الطرق التي جرّبوها لهذا الغرض...

تطوّع بعض الشباب، فحاولوا تسلّق الشجرة، لكنّ جذعها المستقيم الأملس لم يمكّن أيّاً منهم من الارتفاع أكثر من أربعة أمتارٍ أو خمسة. تجرّحت أيديهم، وتمزّقت ملابس بعضهم بدون جدوى.

بادر عبّاس أمين المستودع في دار البلديّة، التي يعمل صبحي أيضاً موظّفاً فيها في قسم الجبايات، بالقول:

- أرسلت من يحضر سلّماً.. لن يتأخروا.

أشاع ذلك نوعاً من التفاؤل، غير أنّه كان تفاؤلاً مؤقّتاً، فعندما وصل السلّم اتّضح أنّه قصيرٌ جدّاً، ولا يفي بالغرض على الإطلاق. اعتذر عبّاس قائلاً:

- هذا كلّ ما نملك.. ظننته أطول من ذلك!

وكان هناك من اقترح بأن يقوم عددٌ من الأشخاص ذوي البنية القويّة بهزّ جذع الشجرة، لعلّ ذلك يفقده توازنه، فيسقط، على أن يستعدّوا لالتقاط الطفل عند سقوطه بيطّانيّةٍ، أو شبكةٍ ينصبونها في الأسفل، ثمّ تراجعوا نظراً لحجم المخاطرة. صبحي بالذات كان من أشدّ المعارضين للفكرة.

- أفضّل أن يموت هناك بسلام على أن أرى لحمه معجوناً بعظمه...

وبكلّ الأحوال، لم يكن من بين كلّ تلك الحلول التي تداولوها ما هو مقنع. لم تكن حلولاً عمليةً ولا آمنة. يضاف إلى ذلك غياب عنصرٍ جوهريٍّ وحاسمٍ عن جميع تلك المحاولات؛ هنالك حقيقةٌ ينبغي تذكّرها ومراعاتها على الدوام، وهي أنّه يملك جناحين. فالمسألة لن تنتهي بمجرّد الوصول إليه، بل في ضمان ألا يحلّق هارباً، كما فعل مع أمّ جعفر، ومع زينب.. كان في قبضة كلٍّ منهما تقريباً، لكنّه أفلت مع ذلك...

- حسبي الله ونعم الوكيل...

قالها صبحي، وقد أيقن أنّ النظرة الأولى نحو طفله، التي فكّر فيها قبل قليل، ستتحقّق، ولكنْ ليس كما كان يتمنّى. ستكون، ولكنْ إلى جسدٍ شاحبٍ هامدٍ، وعينين خرساوين، ووجهٍ بملامحَ متصلّبةٍ قاسيةٍ تحتفظ بكلّ أحاسيس الرعب، والألم، والعزلة، والخذلان التي عاشها خلال ساعات حياته الخاطفة. عرف أيضاً أنّه حين يتذكّره مستقبلاً فسيتذكّره بلا اسم. شخص نكرة، مجهول الهويّة، عابر طريقٍ وحسب، وليس ابناً من لحمه ودمه.

روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025

- ستكون معجزةً لو نجا.

ردّدها صبحي ثانيةً.

ولم يخطر في ذهنه أنّ المعجزات لا يشترَط فيها دائماً أن تكون خارقةً وصادمةً وخارج ما هو مألوفٌ ومتوقّعٌ لتؤدّي المطلوب منها. هنالك من المعجزات ما يأتي صغيراً ومتواضعاً، ويكاد يكون غير ملحوظٍ، ويفعل فعله مع ذلك.

كأنْ يتدخّل هذا الرجُل الستيني الذي هذه المرض، فقفز بعمره إلى الأمام عشرَ سنواتٍ إضافيةً على الأقلّ. أبو محارب، الشرطيّ السابق، والأرمل المعتكف في بيته لا يكاد يغادره منذ توفّيت زوجته قبل خمسة أعوامٍ؛ نتيجة مضاعفات التهاب الزائدة الدوديّة.

آلام الروماتيزم التي يعاني منها، والتي كان من شأن الوقوف الطويل على القدمين أن يفاقمها، حملته على الابتعاد قليلاً عن هؤلاء العشرات –أو ربّما المئات- وقد تجفعوا حول شجرة الكينا شاهقة الارتفاع يترقّبون ما ستنتهي إليه مأساة الطفل ذي الجناحين، فاختار حافّة الرصيف، المكان نفسه تقريباً الذي حطّ عليه الطفل عند هروبه الأوّل؛ ليجلس، وقد ركن عصاه التي يتوكّأ عليها إلى جانبه.

كان قد أمضى الوقت كلّه يتأمّل فقط، فلم تصدر عنه كلمةٌ واحدةٌ حتّى الآن. دخّن الكثير من السجائر، ثمّ اشتهى كأساً من الشاي، فأشار إلى أحد الصّبية:

- ما اسمك يا ولد؟

- أحمد.

- ابن من؟

- عبده الفرّان.

- أها! هذا هو منزلكم إذاً؟

- نعم.

- تمام. اذهب إلى أمّك، وقل لها: عمّي أبو محارب يريد شاياً.

ثمّ أشار إلى صبيٍّ آخر.

- وأنت... تعال إلى هنا...

أقبل الصبيّ، وقد بدت على وجهه علامات الاستياء، فقد خشي أن يكلّفه هذا الشرطيّ الثرثار بمهمّةٍ أخرى، وقد يفوته خلال غيابه تطوّرٌ مهمٌّ في الأحداث.

- اذهب إلى ذلك الأبله صبحي، وأخبره أنّني أريده في كلمتين.

وانشرحت أسارير الصبيّ، فقد كانت مهمّةً أسهل وأبسط ممّا توقّع.

عندما أقبل صبحي، أخرج سيجارةً وقدّمها له.

- خُذ.

تناولها منه، وقال:

- شكراً أبو محارب...

وأراد أن يقول شيئاً آخر لكنّ الشرطي قاطعه:

- أنت وجميع هؤلاء أغبياء.. مغفلون.. حمير. اختر ما تشاء من الصفات الملعونة التي تعرفها.

ومزّةً أخرى لم يعطه مجالاً للردّ؛ إذ بادر بالقول:

- اسمع.. ما الذي تعرفونه عني سوى أنني شرطيٌ ومريضٌ بالروماتيزم؟

فكّر صبحي لحظةً، ثمّ أجاب بطريقةٍ تعمّد أن تكشف عن ضيقه، وحرصه على أن ينهي الحديث في أسرع وقت:

- نعرف أنك كنت صيّاداً أيضاً...

- ليس كأيّ صيّادٍ يا صبحي.. ليس كأيّ صيّاد.. صيّاد غزلان، وأرانب، وثعالب، وقطا، وزرازير. وتعلمون أنني اصطدت ذئبين أيضاً.. سمعت بذلك طبعاً..

- طبعاً...

- جيّد.. وتذكّر أنّه ما من فريسةٍ وضعتُ عيني عليها وتمكّنت من الفرار.. لم يحدث يوماً أن أفلتت مني فريسةٌ من الفرائس...

وراودت صبحي الشكوك بأنّ الشرطيّ على وشك أن يبدأ بسرد واحدةٍ من قصصه الطويلة التي سبق له أن سمعها منه عشرات المرّات حول مهاراته العجائبيّة والاستثنائيّة في الصيد، فقرّر أن يقطع الطريق عليه مسبقاً، فهو يعلم أنّه إذا بدأ فسيستحيل إيقافه قبل أن يصل بالقصّة إلى خاتمتها السعيدة التي يعرفها بطبيعة الحال.

- طيّب يا أبو محارب.. ما علاقة ذلك بمصيبتي؟

- عُهيّ!

ثمّ تغيّرت نبرة صوته فجأةً! وطغى عليها شيءٌ من اللُّطف، وهو يقول في هدوءٍ كأنّه يعتذر:

- حسناً.. معك حقّ، فأنت مستعجل.. لن أطيل عليك.. من تجربتي في الصيد يا صبحي تعلّمتُ أنّ بعض الفرائس لا يمكن الوصول إليها ما لم تُغرها بطُعمٍ تجتذبها به إليك.. فرائس ابتلاها الله برذيلة الطمع، ونحن -الصيّادين- نعرف ذلك فيها، فنستغلّه ليكون وسيلتنا للإيقاع بها. وبصفتي شرطياً أيضاً نفعل ذلك مع المجرمين، بأن نستدرجهم بطعمٍ ما ممّا نعرف أنّه يُسيل لعابهم. وكنّا ننجح دائماً. هذه أسرار يا صبحي، وأنا إذ أبوح بها أمامك فلأنّني أشفق عليك، وأريد بكلّ صدقٍ أن أخرجك من محنتك.

صمت قليلاً، ثمّ أضاف:

- أجل، على الرغم من غبائك، فأنا أشفق عليك، وأدعو الله أن يعينك.

كانت كأس الشاي قد وصلت، فتناولها وقدّمها لصبحي.. ثمّ التفت إلى الصبيّ:

- خُذ وأحضر كأساً أخرى.. وقُل لأمّك أن تجعله حلواً.. ملعقتا سكّر كبيرتان.. فهمت؟

أمسك بركبته، وراح يدلّكها، ثمّ وجّه كلامه لصبحي ثانية:

- اشرب لعلّ عقلك يستيقظ، وتفهم ما أقول. اسمع.. ابنك هذا ولدٌ لئيمٌ وخبيث.. حقيرٌ وكلب.. لكنّنا سنغلبه. سنجعله يغادر هذا المكان الذي يتحصّن فيه، ويهبط إلينا ذليلاً كأحطّ خلق الله. لعنه الله. إذا كان قد فعل بك هذا وهو ابن ساعةٍ واحدة، فماذا عساه يفعل عندما يصبح في العاشرة، أو العشرين؟!

لم يتوقّف صبحي عند الكلمات القاسية التي تلفّظ بها الشرطيّ بحقّ ابنه، فهذه طريقته في الكلام، وهو يعرفها عنه حقّ المعرفة. غضّ النظر عن شتائمه البذيئة، وأراد أن يفهم أكثر، فقد لمس في لهجة الرجل الجادّة

ما يستحقّ أن يصغي إليه.

- من الآخر.. وهذا هو الحلّ الوحيد.. لا تجعل هؤلاء الحمير يخدعونك بأفكارهم الغبيّة.. حلّ واحد لا بديل له.. نستدرجه بطُعم نضعه له.. نغريه بما لا يستطيع مقاومته.. وعندئذٍ نلقي القبض عليه، وننهي هذه المهزلة.. كفاه عبثاً بنا.

- لم أفهم.. أيّ طُعم؟!

- أمّه. لا تستغرب.. لا تنظر إليّ هكذا.. سنجعل من أمّه طُعماً للإيقاع به.

- أمّه؟! أبو محارب، أنا لست في موقف أحتمل فيه أيّ مزاح.

- اسمع يا غبيّ.. أنا لا أمزح.. اذهب وأحضرها هنا. يجب أن يراها، ويشمّ رائحتها. يجب أن يحسّ بقربها منه. ما من طفل يستغني عن أمّه، خاصّةً إذا كان قد خرج من رحمها للتوّ. إنّهم ضعفاء، على الرغم ممّا قد يتّصفون به من لؤم أحياناً.

- كيف تحضر ولم يمضِ على ولادتها سوى ساعة؟

- هل ماتت؟

- لا.. لكنّك تعرف حال المرأة عندما تكون قد ولدت الآن.

- طالما لم تمت فكلّ شيءٍ ممكن. أحضروها محمولةً.. على نقّالة، أو عربة، أو كرسيّ، أو بين أذرعكم. جدوا طريقةً لإحضارها.. هذا هو الحلّ الوحيد كي نرغم ذلك المخلوق التافه على مغادرة مكانه.

- لا يا أبو محارب. هذا مستحيل! ثمّ انظر إلى الناس هنا، ستكون فضيحةً يا أبو محارب أن أسمح لزوجتي بالظهور أمامهم، وهي على هذه الحال.

وأدار ظهره ليغادر، لكنّ الشرطيّ استوقفه غاضباً:

- إلى أين؟ تعال.. لم أكمل كلامي...

بدا صبحي متعباً، يائساً، مستنفد القوى. لم يستشعر في داخله أيّ قدرٍ من الطاقة يمكن أن يعينه على مزيدٍ من الأخذ والردّ.

- دعني يا أبو محارب.. لقد فوّضت أمري إلى الله.

- آمنت بالله.. الله مولانا جميعاً يا جاهل.. تعال...

ولم يتحرّك لأنّه كان في الأصل ملاصقاً له.

- أقول لك ما في قلبي؟ معك حقّ في هذا الذي ذكرته.. لا ألومك.. لكنْ صدّقني، هذا هو الحلّ الوحيد لإنقاذ هذا الحقير من الموت.. سيموت، صدّقني، إن لم نفعلها.. لا تتوقّع أن يغادر مكانه، ويأتي إليك من تلقاء نفسه.. أفنيت حياتي في الصيد، كما في استدراج المجرمين، وأعرف كيف تتصرّف هذه المخلوقات اللئيمة.

- مستحيل! لا تحاول يا أبو محارب.. لو أحضرتها فهي التي ستموت.. خسارتي لعشرة أبناء أهون عليّ من خسارتي لها.

مدّ أبو محارب ساقه، وأخذ يدلّك ركبته مرّةً ثانية. كان واضحاً أنّه يتألّم.

- هذا الروماتيزم اللّعين! كلّ الأمراض أسهل من مرضٍ يجعلك شِبه مُقعَد.

وبعد أن شعر أنّ الألم خفّ قليلاً، فطِن إلى ما قاله صبحي عن أبنائه العشرة، فضحك:

- هل قلت عشرة؟ وتقضي عمرك، وأنت تلاحقهم من شجرةٍ إلى شجرة؟

ثم عاد إلى نبرة الجد في كلامه، وأضاف:

- طيب.. سنجرّب شيئاً آخر.. مجرد تعديلٍ على الخطة.. تعديل بسيط أرجو أن يفي بالغرض، وفي الوقت نفسه لا يعرّض الأمّ للخطر ويجنبك الفضيحة التي تزعمها وتخشاها.

لم يجب صبحي، لم تكن لديه الرغبة في معرفة شيء.

- اسمع.. قد يكون الطُّعم مجدياً لو اكتفينا بثياب الأمّ.. لست واثقاً، ولا أضمن النتيجة، لكننا سنجرّب.. دع الأمّ في مكانها، وأحضر ثيابها فقط.. كوّمها هناك، على مقربةٍ من الشجرة، بحيث يراها هذا التافه ابنك.. على أن تكون الثياب نفسها التي كانت عليها عند ولادتها لهذا الكلب.. فهمت؟ الثياب نفسها يا صبحي.. هذا مهمٌّ وضروريّ.. نريد رائحتها فيها.. الرائحة.. مركّزةً.. وقويةً.. وطازجةً.. تقطع المسافة من الأرض إلى ذلك الجبان المختبئ هناك أعلى الشجرة، وهي بكامل عنفوانها.. تقتحم منخريه بلا رحمة، فتدير رأسه.. مثل جرعةٍ من العرق السك، تصرعه، وتجبره على الاستسلام.. فهمت؟

https://t.me/riwayat2024

(7)

كان الأفق قد ابتلع قرص الشمس تماماً، لكنّ بقيةً من ضوءٍ ظلّت عالقةً على أطراف السماء على شكل وهجٍ يتراوح بين الأحمر والذهبي، ما مكّنهم من الجزم بأنّ تلك الحركة الخفيفة التي رأوا ظلالها في الأعلى هي حركة جناحيه فعلاً. وحين اختار بعضهم زاوية نظرٍ أخرى بحيث لا تحجبه عنهم الأغصان المتشابكة، رأوه بالفعل مقوّساً ظهرَه بالاستناد إلى يديه وركبتيه، ومُدلّياً رأسه إلى الأسفل ينظر باتّجاه كومة ثيابٍ جاء بها صبحي وسرحان قبل قليل.

وعمّ الصمت.

لم يكن الصمت في لحظةٍ من اللحظات على هذا القدر من العمق، والمهابة، والجلال. صمتٌ مطلقٌ لا نهاية له، حتى إنّ الريح نفسها توقّفت، وتوقّفت الأصوات التي كانت تحملها:

حفيف أوراق الشجر، وصرير النوافذ المشرعة حيث الرؤوس المطلّة تتابع المشهد، وثغاء الأغنام العائدة من مراعيها البعيدة باتّجاه حظائرها، ونهيق الحمير، ونعيق الغربان، وقرع حبّات المسابح بأيدي بعض الرجال، والنحنحات، والشهقات، والتنهّدات، وخفقات القلوب تحت الأضلاع.

أنفاس صبحي توقّفت هي الأخرى، وتوقّف معها الدم في عروقه؛ أمّا الصور السريعة الصاخبة التي كانت تتحرّك داخل رأسه مجسّدةً رعبه ممّا يحتمل وقوعه خلال الدقائق التالية، فقد تجمّدت كلّها، ثمّ تلاشت تماماً، لتخلّف وراءها صفحةً قاتمة السواد، تخلو من أيّ أثرٍ يدلّ على الحياة: لا مخاوف، ولا هواجس، ولا شكوك، كما لا آمال، ولا نبوءات، ولا يقين.

وسط هذا الصمت الكثيف الثقيل أطلق الرضيع عواءه، طويلاً، وممتدّاً، وعلى وتيرةٍ واحدةٍ لا يتخلّلها انقطاعٌ، ولا ارتفاعٌ، ولا انخفاض. نبرةٌ ثابتةٌ لا تتغيّر أبداً.

كسيخٍ من الحديد المحمّى كان عواؤه يخترق الآذان. وعلى الرغم من شراسة الألم لم يتحرّكوا. لزموا أماكنهم ساكنين تماماً. أعينهم فقط كانت تدور داخل المحاجر، ترصده في أدقّ حركاته:

وهو يمطّ جسده..

وهو يدير رأسه..

وهو يتشمّم خيط الرائحة القادم إليه من الأسفل..

وهو يعبّ الهواء في صدره..

وهو يطوي جناحيه..

وهو يفردهما ثانية..

وهو يمدّ رقبته..

وأخيراً.. وهو يقذف بنفسه من الأعلى.

خلال تحويمه فوق رؤوسهم لم يكفّ عن العواء، العواء المشحون بكلّ ما يمكن تصوّره من ألم، فيما رقابهم في الأسفل تطول وتمتدّ متتبّعةً إيّاه، فتدور حول نفسها وتلتفّ دوراتٍ كاملةً تقريباً.

ثمّ اقترب من الأرض إلى أن لامس جسده كومة ثياب أمّه. لم يحطّ فوقها على مهل، كما يحطّ أيّ طائر، بل رمى بنفسه فوقها. رآه، وهو يهوي كحجرٍ مرتطماً بها.

ثمّ انقطع عواؤه.

انقبضت القلوب.. لم تكن تلك إشارةً حسنة. لم يكن ينبغي أن يحدث هذا.

- الولد...

نادى صبحي، وركض باتّجاه كومة الثياب.

ثمّ عاد الصوت ثانيةً. لكنّه لم يكن عواءً هذه المرّة، ولا يشبه العواء. كان بكاءً فقط. البكاء العاديّ الطبيعيّ المألوف الذي يبكيه جميع الأطفال في عمره.

هكذا...

لم يجدوا مشقّةً في الإمساك به. حدث كلّ شيءٍ ببساطةٍ وهدوء. حمله أبوه بين يديه، واتّجه به إلى الداخل، فيما ظلّ بكاؤه العاديّ الذي لم يعد يشبه العواء مسموعاً إلى أن اختفيا عن الأنظار.

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025

(8)

لم تكن حال عامر بدرجة السوء التي توقّعها وكان متخوّفاً منها، بل لقد لمح في وجهها ما يدلّ على شيء من الطمأنينة، أو الرضا، أو ربما السعادة!

جلس إلى جوارها على السرير، ثمّ أزاح بطرف إصبعه خصلة شعرٍ متدلّيةً على جبينها، وقال:

- يجب أن نختار له اسماً. لا يعلم أحدٌ ماذا يمكن أن يحدث.. قد يفلتُ من جديد، فكيف سنناديه؟

هزّت رأسها موافقةً، ولكن بدون أن ترفع عينيها باتّجاهه. كانت مستغرقةً في تأمّل ابنها، وقد أغفى على صدرها بعد أن انتهت من إرضاعه. كانت جدّته لأبيه قد ناولتها إيّاه ملفوفاً بقماطٍ أحكمت ربطه تحسّباً لأيّ طارئ، وأوصتها أن تنتبه جيّداً.

- ماذا تقترحين؟ هل لديكِ اسمٌ مناسب؟

سألها.

- لا أدري.. ليس في ذهني شيء...

- كان يجب أن نفكّر في الأمر قبل ولادته...

- معك حقّ...

والحقيقة أنّهما فكّرا فيه فعلاً، ولكن ليس على نحوٍ جدّيّ. تكلّما عدداً محدوداً من المرّات، على نحوٍ عابرٍ، وفي أوقاتٍ غير مناسبةٍ غالباً...

كأن يكون منهمكاً بالبحث عن مفاتيح مكتبه المفقودة قبل أن يخرج إلى العمل، فتسأله:

- ما رأيك باسم محمّد؟

- هنالك ألف محمّد في البلد...

يجيب باقتضاب، ثمّ يقول:

- المفاتيح.. تركتها هنا في هذا الدرج.. أين اختفت؟

أو كأن تكون أذنه على راديو الترانزستور الذي أهداه إيّاه زملاؤه في العمل بمناسبة زواجه، يستمع إلى مديحة المدفعي في البي بي سي، تتحدّث عن نجيب الريحاني، فيعلّق:

- نجيب، عظيم! أبو نجيب اسمٌ رائع...

ويضيف:

- وإذا كانت بنتاً فاسم مديحة مناسبٌ أيضاً...

وعندما لا يستشعر من عامر أيّ ردّ فعلٍ يبعد الراديو عن أذنه، ويلتفت إليها ليكتشف أنّها كانت مستغرقةً في نومها.

أو كأن تكون عيناه قد وقعتا -وهي منحنيةٌ أمامه على الأرض لتلتقط مشبك الغسيل الذي سقط منها- على ردفيها اللّذين ازدادا امتلاءً وتكوّراً بعد حملها. ثمّ تعتدل، وتستدير نحوه، فيلمح ارتجاج ثدييها خلف الثوب الرقيق، وينتبه إلى أنّ الحمل ترك آثاره عليهما أيضاً، فجعل ظلّ الحلمتين أكثر ثقلاً ونضجاً. وفي غمرة انشغاله بالتخطيط لمغامرةٍ ماجنةٍ معها هنا في الحمّام تباغته بالقول:

- خطر لي اسم حمزة...

فيجيب، وهو يلعق خيط اللعاب المنساب من بين شفتيه:

- دعك من اسمه الآن...

أو كأن يحاول هو معرفة رأيها باسم عروة إن كان ولداً، أو سعاد إن كانت بنتاً، وعندما تتأخر في الإجابة ينظر في وجهها، فيراه وقد انقبضت ملامحه، وتغير لونه من المتورّد المضيء إلى الأصفر الشاحب. تغلق فمها بيدها، وتركض باتجاه الحمّام، لكنّها تصل متأخرةً، بعد أن يكون قيؤها قد انسكب على الأرض فعلاً. بعد أن تنتهي من إخراج ما في جوفها، يساعدها في غسل وجهها، ثم يقودها إلى السرير. يمددها. يطبع قبلةً على جبينها. ثم يتركها لينظّف الأرض، وقد غاب عن ذهنه كلّ ما يتعلّق بعروة، أو سعاد، أو بأيّ اسم آخر...

حمزة، عمر، نزار، سعاد، هاجر، عروة، قيس... ولم يقرّرا.

لقد تأخّرا كثيراً في اختيار اسم له، ولم يحسبا حساباً لهذه المفاجأة؛ أن يولد بجناحين، وأن يهرب بهما، وأن يحط على شجرة كينا على ارتفاع خمسة عشر متراً، وحين يريد أبوه أن يناديه لا يجد كلمةً سوى:

- هيييييييييييييييه!

ما زال إلى الآن يغصّ بالكلمة كلّما تذكّرها، لذلك يلحّ على البتّ في الأمر في أسرع وقت.

(9)

أما هي، فمشغولةٌ بالجناحين اللّذين لم ترهما حتى الآن.

هل هما صغيران أم كبيران؟

ما لونهما؟ ما أروع أن يكونا بالأصفر والأخضر!

هل يغطّيهما الريش كأجنحة الدجاج، أو العصافير، أم هما مجرّد غشاءين جلديّين رقيقين وعاريين كأجنحة الخفافيش؟

هل سيعيش بهما بقيّة حياته، أم يمكن أن يجفّا ويسقطا فيما بعد كما ستسقط بقايا الحبل السرّيّ على بطنه؟

والأهمّ، كيف ستتصرّف معه؟ ما الاحتياطات التي لا بدّ من اتّخاذها لضمان سلامته؟ كيف تتأكّد من أنّه لن يهرب ثانيةً؟ وأيّ فجيعةٍ ستعيشها لو حدث ذلك في يومٍ من الأيّام؟

بعض هذه الأسئلة بقي معلّقاً دون إجابة، في حين وجدت إجاباتٍ لبعضها الآخر في اللّيلة نفسها، بعد ساعةٍ تقريباً من خروج صبحي عائداً إلى منزلهما، وفي ذهنه أن يكمل إصلاح الرفوف في المطبخ صباح اليوم التالي.

عرفت مثلاً: أنّهما جناحان صغيران نسبياً، لكنّهما مكتملا النموّ، وأنّهما –كما كانت تتمنّى– مكسوّان بريشٍ، لكنّه رماديّ اللّون، يتراوح بين الناعم الدقيق الذي يشبه الزغب قريباً من منبتهما، والطويل القاسي عند النهايات.

عرفت ذلك عندما رأته عارياً. كانت حماتها قد حرّرته من قماطه، فيما تولّت أمّها قبل ذلك مهمّة إغلاق النوافذ، كما أوصدت الباب بالمفتاح، وذلك للحيلولة دون هروبه إلى الخارج في حال تمكّن من الإفلات منهما. ثمّ طلبتا من عامر أن تراقبهما، لتتعلّم كيف يكون حمّامه مستقبلاً.

لقد جرت العادة أن يكون الحمّام الأوّل للوليد في يومه الثالث، أو الرابع، لكنّ الجدّتين ارتأتا أن تستعجلا به ليكون اليوم، بعدما لاحظتا كميّة الغبار الهائلة التي علقت بجسده إثر قضائه ذلك الوقت الطويل في العراء أعلى تلك الشجرة. وبعد أن اختلط الغبار بالسوائل التي كانت ترشح من جسده تحوّل إلى طينٍ سرعان ما جفّ، وتحوّل إلى قشرةٍ خشنةٍ قاسيةٍ خشيتا أن تؤذيه في حال تُركت كما هي بلا غسل.

أمسكته جدّته لأبيه بين يديها، فانتفض بعنفٍ محاولاً التملّص منها. استغربت الجدّة أن يكون لرضيعٍ لم تمضِ على ولادته سوى ساعات مثل هذه القوّة والعناد، غير أنّها ظلّت في كامل يقظتها، ممسكةً به، بأشدّ ما يمكن من الإحكام، داخل طشت الألمنيوم الواسع؛ أمّا الجدّة الأخرى، فكانت تصبّ الماء الفاتر فوقه، ومع كلّ دفقة ماءٍ تردّد:

- بسم الله.. الحمد لله.. سبحان الله.. الله أكبر!

كان الصغير، وهذه هي الكلمة التي سيستخدمونها منذ الآن عندما يتحدّثون عنه ريثما يجدون له اسماً مناسباً؛ يبكي، وكان هذا يفرح قلوب النسوة الثلاث في الغرفة، فالبكاء مهما كان صاخباً، وحادّاً، وحزيناً، وغاضباً، أفضل وأرحم من العواء. يطمئنهنّ ذلك إلى أنّه طفلٌ كسائر الأطفال، وأنّ وجود جناحين في ظهره ليس سوى تفصيلٍ عارضٍ يمكن تجاهله، مؤقّتاً على الأقلّ، شريطة أن تظلّ العيون مفتوحةً عليه، تراقبه، وتحتاط لأجله، لا سيّما عندما يكون الجناحان حرّين من أيّ قيد.

بعد أن انتهت الجدّتان من حمّامه أعادتا ربطه بالقماط، وناولتاه لأمّه ثانيةً، ثمّ غادرتا للنوم، فقد انتصف اللّيل، واليوم كان طويلاً وشاقّاً.

الفصل الثاني

(1)

عاد من المدرسة. رمى بكتبه على الطاولة في الصالة على عجل، ثمّ نادى أمّه ليخبرها بأنّه جائع.

كانت ستطلب منه الانتظار ريثما يعود أبوه، لكنّ شيئاً ما أرابها، فتوقّفت...

اقتربت منه، ثمّ مرّرت يدها على ظهره...

- ألقِ قميصك عنك...

ولم يعترض، ظناً منه أنّ أمّه كانت خائفةً على قميصه من أن يتسخ، كما يحدث عادةً، لا سيما في أثناء الأكل.

كانت متوتّرةً على نحوٍ واضح، وقد دلّت حركاتها المتشنّجة، ونظراتها، وأنفاسها، على أنّ ثمّة سؤالاً ملحّاً خطر في ذهنها فجأةً، وتريد أن تجد جواباً له في أسرع وقت.

ما إن انتهى من فكّ آخر زرّ في القميص حتّى جذبته، وألقت به على الكرسيّ إلى جوارها، ثمّ واصلت العمل، فنزعت عنه قميصه الداخليّ أيضاً.

أمسكت بجناحيه، وفردتهما. ضيّقت عينيها، وهي تتأمّلهما. قلّبت الريش النابت. صمتت لحظةً، ثمّ قالت:

- أها! حان الوقت. تتغدّى، وترتاح قليلاً، ثمّ تذهب إلى أبو سعيد.

- ليس اليوم...

- بل اليوم.

صمت الصغير. لم يقل شيئاً. رفع جناحيه إلى الأعلى فقط، ثمّ هزّهما بطريقةٍ غامضة. ولأنّ أمّه لم تتعلّم –إلى هذا الحين– لغة الأجنحة، حيث ظلّت مبهمةً بالنسبة إليها، ومعقّدةً، وغريبةً، فقد تجاهلت الأمر وقالت:

- وستذهب وحدك، كما في آخر مرّة. لم تكن صعبة. لقد كبرت، وليس ضرورياً أن يصحبك أبوك. كما أنّ أبو سعيد يعرف ماذا يجب أن يفعل.

(2)

خلال الأشهر الأولى التي تلت ولادته عانى الأبوان كثيراً. كان عليهما أن يتحملا صراخه المستمرّ وهو مقيّد الجناحين. كانا يعلمان أنّ هذا القيد الذي يمنعه من استعمال جناحيه هو وراء آلامه كلّها. لطالما رأيا الجناحين عندما كان يدفع بهما من تحت القماط في محاولاتٍ يائسةٍ متواصلةٍ للتحرّر والانطلاق. ولطالما روّعهما ازرقاق وجهه، وجحوظ عينيه، واندفاع الزبد من فمه، وهو يحبس أنفاسه، ويكزّ بأسنانه على شفتيه، كما لو أنّه يريد أن يستجمع قواه كلّها بغية تفجيرها دفعةً واحدةً، بما يمكّنه من تمزيق هذه الأربطة التي تحيط به. كان ذلك يرعبهما حقّاً، ويحول بينهما وبين أيّ شعورٍ بالراحة، فضلاً عن المتعة، وهما يعيشان تجربتهما الأولى في الأبوّة.

ومع ذلك لم يكن بوسعهما فعل شيء...

جرّبا الكثير من الأعشاب التي قيل لهما إنّها ستساعده على النوم، أو الاسترخاء، وحقّقت بعض تلك الوصفات نفعاً ما في الأيّام الأولى، فكان ينام بضع ساعات في اليوم. وحتّى عندما يكون يقظاً فإنّه لم يعد يصرخ، بل يئنّ فقط. أصوات خافتة متقطّعة تخرج من جوفه، وتكاد تكون غير مسموعةٍ إلّا لمن كان شديد القرب منه.

راودت أبويه شكوكٌ مؤلمةٌ تجاه هذه الوصفات، وتخوّفا من تأثيرها المستقبليّ عليه. كان كابوساً مرعباً بالنسبة إليهما أن يربيا ابنهما الشابّ خاملاً، أو محدود الذكاء، أو مريضاً، أو ضعيف البنية. لطالما حلما به كتلةً مثقدةً من النشاط، والحيويّة، والحماس، والنبوغ. غير أنّهما قبل أن يتّخذا قراراً بخصوص هذه الوصفات الشيطانيّة انتبها إلى أنّها فقدت مفعولها. لم يعد لها أيّ تأثيرٍ عليه، وعاد الصراخ إلى ما كان عليه حدّةً، وصلابةً، وعناداً، فكفّا عن استعمالها.

لكن ذلك لم يعنِ أنّ المشكلة قد انتهت، فصراخ الصغير لا ينبغي أن يستمرّ طويلاً. عذاباته، وهو يقاوم هذه الأربطة التي تحيط بجسده؛ كانت أقسى من أن يتجاهلاها، أو حتّى أن يرجئا البحث عن علاجٍ لها إلى وقتٍ آخر.

تلقّيا نصيحةً بإجراء عمليّةٍ لاستئصال الجناحين. عمليّة لم يُخفِ عنهما الطبيب الذي يزور البلدة كلّ يوم خميس مبلغ خطورتها. عرفا كذلك أنّها ستكون مكلفةً جداً، وبما يتجاوز قدرتهما، وعرفا أنّهما سيضطرّان إلى السفر أكثر من مئةٍ وعشرين كيلو متراً، حيث أقرب مستشفى مجهّز بغرفة عمليّات، مع ما يترتّب على ذلك من تكاليف إضافيّةٍ باهظةٍ تتظلّبها الإقامة بين أسبوعٍ كاملٍ وعشرة أيّام ريثما تتمّ العمليّة، ويلتئم جرح الصغير في حال كان محظوظاً ونجا من الموت.

اعترضت عامر خوفاً من خسارتها المحتملة لصغيرها، وصبحي بدوره لم يجادلها، لأنّه في قرارة نفسه كان مقتنعاً معها بأنّها مغامرةٌ لا بدّ من تجنّبها قدر الإمكان.

إحدى الجارات ممّن كان صراخ الصغير المتواصل يثير أعصابها، لا سيّما في اللّيل، أشارت على عامر أن تبقي جناحي ابنها طليقين ما دام مصرّاً على ذلك، على أن تربطه من قدمه بحبل، بحيث لا يتمكّن من الهرب. نصيحةٌ تلقّتها عامر من جارتها بكثيرٍ من الغضب والاستياء. وصفتها بأنّها عديمة الإحساس، وصرخت في وجهها:

- ابني ليس حيواناً!

وفي أحد الأيّام توقّفت أمام باب المنزل عربةٌ يقودها حمار، محمّلةٌ بقفصٍ بمساحة مترين مربّعين تقريباً، وارتفاع مترين ونصف. كان عمّ صبحي الذي يعمل نجّاراً قد تبرّع بهذا القفص للصغير. قال:

- انظر يا صبحي، إنّه واسعٌ ومريح. بإمكانك أن تضع ابنك داخله، وأنت مطمئنّ. تعيش حياتك كما تشاء،

بدون أن يقلقك مصيره. ضعه هنا، وأغلق الباب. دعه يطير داخله إلى أن يتعب.

وأضاف:

- يمكنني في المستقبل أن أثبت داخله قضباناً من الخشب، أو الحديد. ستكون كأغصان الشجر ويستطيع أن يقف عليها عندما يتعب من الطيران.

لكنّ صبحي رفض أن يدخل القفص بيته، وطلب أن يعود به عمّه إلى حيث كان. وبالمصادفة كانت كلمات عامر نفسها:

- ابني ليس حيواناً!

كرّرها حرفيّاً، وأغلق الباب في وجه عمّه.

قاوما كلّ تلك المقترحات، والنصائح، والوصايا؛ لأنّهما لم يجدا فيها حلولاً حقيقيّةً، غير أنّهما تعبا في النهاية، وتعب معهما الصغير أيضاً. لم يعد يُقبل على ثديي أمّه بالشهيّة نفسها التي كان عليها في أيّامه الأولى. ولاحظا أنّه أصبح شاحباً، وكانت عيناه شديدتي الاحمرار طيلة الوقت، يقذى أصفر على زاويتي كلّ منهما، تنظّفه أمّه له دائماً، ثمّ لا يلبث أن يعود ليتراكم حولهما. الشيء الوحيد الذي لم يتغيّر هو صراخه. لم يكفّ عن الصراخ قطّ، وإن كان صوته أصبح مع مرور الأيّام حزيناً يائساً أكثر منه متألّماً، أو غاضباً.

روايات وكتب عربية وعالمية https://t.me/riwaya2023

ثمّ حدث أن أفلت من يد أمّه ذات مرّة، وهي تفك له قماطه لتنظّفه. انتفض بين يديها، محرّكاً جناحيه الحركة الرشيقة الخفيفة نفسها التي هرب بها عند ولادته. وبدون تفكير، وبدافعٍ من قوّةٍ غامضةٍ لا تدري من أين جاءتها، ألقت بجسدها باتّجاهه في محاولةٍ يائسةٍ للإمساك به، لكنّه كان أسرع منها، فانعطف مبتعداً عن متناول يدها، وهو يطلق صوتاً لم تعرف بالضبط ما إذا كان ضحكةً ساخرةً أم صيحة غضبٍ واستنكارٍ لما قد يكون تعدّياً على حقٍّ من حقوقه...

لاحقته بعينيها المذعورتين، وهو يطفو في الهواء مرفرفاً بجناحيه الصغيرين، ومتلفّتاً برأسه إلى اليمين واليسار بحثاً عن مخرج. طاف أرجاء الغرفة كلّها، متمهّلاً على نحوٍ خاصّ عند الباب والنافذة المغلقين. كان يبطئ من طيرانه كلّما اقترب منهما، ويمدّ أنفه متشمّماً إيّاهما، ثمّ يبتعد.

فعلها عدّة مرّات.

ثمّ حطّ أخيراً على حافّة الخزانة من الأعلى. بدا راضياً بما تحقّق له، ولم يظهر عليه أنّه كان حزيناً، أو مخذولاً لإخفاقه في الخروج. ومن الملامح الهادئة المطمئنّة التي التقطتها الأمّ في وجهه عرفت أنّ ما كان يعنيه حقّاً هو الطيران ذاته، أو على الأقلّ انطلاق جناحيه من القماط الذي كان يقيّدهما، ولا يهمّ بعدئذٍ إن بقي داخل الغرفة المغلقة، أو تسنّى له أن يخرج إلى حيث الفضاء الواسع المفتوح.

دمعت عيناها، وهي تراه عند حافّة الخزانة يروح ويجيء، ويهزّ رأسه، ويصفّق بجناحيه.

كان يلعب كأيّ طفل.

كانت مأخوذةً بما يجري؛ إذ لم يسبق لها أن رأت مثل ذلك من قبل.

في أثناء حملها به حلمت كثيراً بمواقف تراه فيها طفلاً مشاغباً شقيّاً، يستفزّها بركضه الطائش منتعلاً حذاءيه الموحلين على السجّادة، أو فوق المقاعد، أو بتسلّله إلى المطبخ، وإفساده -في غفلةٍ منها- وجبة الغداء التي أمضت نهارها في إعدادها، بإفراغ علبة الملح كاملةً فيها؛ أو بتحطيمه زجاج النافذة بكُرته، أو قطفه ثمرة اللّيمون الوحيدة على الشجرة، وهي ما تزال خضراء لم تنضج بعد، أو بوصوله إلى علبة مكياجها، واستخدامه أحد أقلام الحمرة في الرسم على الحائط.

لطالما استمتعت -في أحلامها هذه- بنيران الغضب التي كانت تلتهم قلبها جزاء حماقاته والمواقف الطفولية الطائشة التي لا يكفّ عن ارتكابها.

هذا الطفل الشقيّ المشاغب الذي لا يهدأ ولا يستكين، هو بالضبط ما كانت تتمنّى أن يكونه ابنها.

غير أنّ جناحيه أفسدا عليها هذا كلّه. حرماها من متعة الغضب، والغيظ، والتهديدات الكاذبة التي تتوعّده بها -إثر كلّ حماقةٍ يرتكبها- بعقابٍ مؤلمٍ قاسٍ سينزل به.

جلست مسترخيةً، وعيناها عليه، ترصدان حركاته المضحكة وقد أصبحت حقيقةً، بعد أن كانت مجرّد خيالاتٍ لا تغادر محيط رأسها. لم يعد يهمّها أن تمسك به، بل لقد خطر في ذهنها أن تفتح له النافذة ليخرج. تخيّلته، وهو يحلّق في السماء سعيداً بجناحيه. قالت في نفسها:

- لقد خُلِق بجناحين ليطير. يحبّ أن يلعب.

ثمّ قالت:

- لو خرج فسيعود حتماً.. أنا متأكّدة من أنّه لن يستغني عن أمّه...

وتذكّرت كومة ثيابها التي استدرجوه بها، فغادر شجرته ليدفن رأسه وسطها، لمجرّد أنّ رائحتها كانت عالقةً

بها.

غير أنّها لم تفعل. لم تجرؤ على فتح النافذة أمام جناحيه. كان إحساسها بإمكان عودته إليها قوياً، ويكاد يصل إلى درجة اليقين، لكنّ خوفها غلبها في نهاية المطاف.

أمضت ساعاتٍ معه في الغرفة وحيدين. كلّمته كثيراً، وروت له بعض الحكايات عن الأميرات، والسحرة، والبحار، والقلاع، والسلاحف، والأرانب، والنمل، والنحل.. وغنّت له أغنياتٍ عن المطر، والسفر، والأحلام، والأعياد، والحرب، والحبّ.

أخبرته عن عامر، أخيها الذي مات في عامه الثاني مسلوقاً، بعد أن انسكب فوقه قِدْر الحليب الفائر، ثمّ ولدتها أمّها بعد موته فأصرّ أبوها على أن تحمل اسمه.

أخبرته كذلك عن صبحي الذي كان أبوه يحلم أن يدرّسه في الجامعة ليصبح معلّماً فيما بعد، لكنّ صبحي خذله برسوبه في البروفيه ثلاث مرّات؛ بسبب الحساب، والفيزياء، واللّغة الفرنسيّة.

وعن زينب وخطيبها الذي يعمل في الكويت، والذي أرسل لها قبل أيّام ساعة أوميغا بأرقامٍ، وعلاماتٍ، وعقاربَ مطليّةٍ بالفوسفور تضيء في الظلام.

وعن فلك عمّتها الثلاثينيّة الصلعاء ذات الصوت الرجوليّ الخشن، التي لم تتزوّج، ووهبت حياتها للتجارة بكلّ ما يخصّ النساء من ثيابٍ، وحمرة شفاهٍ، وطلاء أظافر، وحنّاء، وأمشاط، وأقراط، تطوف بها على البيوت، وتكسب منها ربحاً مكّنها فيما بعد من شراء بيتٍ من غرفتين، تسكن إحداهما، وتستعمل الأخرى مخزناً لبضاعتها.

سألته أيضاً إن كان يحبّها، وإن كان يريد أن يهرب حقّاً، وإن كان جائعاً، وإن كان جناحاه يؤلمانه بسبب القماط. أخبرته أنّها قد تحرّر له جناحيه إن هو وعدها بألّا يهرب.

*

عندما وصل صبحي بعد انتهاء دوامه في دار البلديّة فوجئ بباب الغرفة مغلقاً. ناداها فأجابته بصوتٍ بالٍ خفيض:

- لقد أفلت منّي يا صبحي.. غافلني، وأفلت.. ولكن لا تقلق.. انتظر، وسأتصرّف.. المهمّ ألّا تحدث أيّ ضجيج.. إذا كنت جائعاً فهناك بقيّةٌ من الفاصولياء في الطنجرة بالمطبخ.. لا تفكّر في الولد.. أظنّه سينام بعد قليل.. أراه يتثاءب الآن...

وكانت حساباتها صحيحةً؛ إذ سرعان ما رأته وقد لوى رأسه، وأغمض عينيه، واستسلم للنوم. خلعت حذاءها، وعلى رؤوس أصابعها، وبخطواتٍ بطيئةٍ حذرةٍ، وأنفاسٍ مكتومةٍ، وبهدوءٍ وحرصٍ شديدين، سحبت كرسيّاً، وصعدت عليه، ثمّ مدّت يدها وأمسكت به.

لم يفاجئها أنّه أسلم لها نفسه طواعيةً. لم يقاوم. لم يجفل، ولم يصرخ، ولم يَفِرّ، ولم يحرّك جناحيه، بل أبقاهما مسبلين خلف ظهره.. فتح عينيه فقط، وألقى نظرةً خاطفةً نحوها، ثمّ أغمضهما ثانيةً، عائداً إلى نومه، بسلامٍ لم تره ينعم به منذ ولادته.

(4)

نبههما تلك الحادثة إلى خطورة التأجيل أكثر، وأدركا أنهما يغامران بحياة ابنهما بهذا الانتظار، فالاحتياطات التي أخذاها مشددةٌ بالفعل، ودقيقةٌ، وصارمةٌ، لكنها ليست كافية. تظلّ الأخطاء واردةً، جرّاء تعبٍ، أو سهوٍ، أو انشغالٍ، أو أيّ سببٍ آخر، وعندئذٍ لن ينفع الندم. سيكون الأوان قد فات، واللحاق بالصغير للإمساك به قد ينجح مرّةً، أو مرّتين، ولكنْ ليس إلى الأبد حتماً.

ثمّ إنّهما لا يستطيعان أن يبقياه مقيّداً أطول من ذلك. هذا القماط يخنقه. يسبّب له عذاباتٍ لا يحتملان رؤيته، وهو يعانيها طيلة الوقت.

تشاورا، ثمّ انتهيا إلى أنّ استئصال الجناحين بعمليّةٍ جراحيّةٍ كما نصح الطبيب هو الحلّ الأجدى. عليهما فقط أن يتدبّرا المال الذي يحتاجان إليه.

وشاع بين الناس أنّ صبحي يعرض بيته للبيع.

رفضت عامر أن تطلب زينب المساعدة من خطيبها، كما أنّ العفة فلك لم يكن لديها ما يكفي لإقراضهما، وإخوة صبحي كانوا يعيشون على الكفاف.. فلم يكن هنالك من حلّ سوى بيع البيت، فاتّخذا القرار على الرغم من قسوته.

غير أنّ المعجزات لا تحدث مرّةً واحدة. يمكن أن تتكرّر، لا سيّما إذا كانت صغيرةً متواضعةً غير ملحوظة.

وهكذا ظهر أبو محارب الشرطيّ مريض الروماتيزم، الذي أقنع الصغير –على طريقته- بمغادرة شجرة الكينا قبل بضعة أشهر، ليرسل إلى صبحي من يخبره بأنّه يريد أن يراه سريعاً.

- اعذرني يا صبحي.. لم أتمكّن من الحضور إليك.. كما ترى، فالمرض استفحل، ولم تعد ركبتاي تعيناني على المشي أبعد من المرحاض.

- سلامتك يا أبو محارب.

- لا بأس. دعك من ركبتيّ الآن، ومن المرحاض، ومن هذا العالم الوسخ. وسخ، أليس كذلك يا صبحي؟

لم يجب صبحي، فابتسم أبو محارب، وتابع قائلاً:

- أنت غبيّ يا صبحي. لم يتغيّر رأيي فيك. تبيع منزلك؟ أنت حرّ في ذلك. هو مالك، والمال في النهاية يأتي ويذهب. لكن ماذا عن العمليّة التي تريد أن يجروها لابنك؟! اسمع. هؤلاء الأطبّاء لصوص. قتلة. لا ضمير لهم. التهاب الزائدة الدوديّة قضى على زوجتي. لم يقدّموا لها شيئاً. شقّوا بطنها، وأخبروني أنّها بخير، ثمّ ماتت بعد يومين.

- ما من حلّ آخر يا أبو محارب.. الولد سيموت بكلّ الأحوال.. نحن لا نستطيع أن نراقبه طيلة الوقت.. سيهرب من أيدينا في لحظةٍ ما.. حلمت به أمّه منذ أيّام، وقد حطّ على شجرةٍ، فباغتته قطّةٌ جائعةٌ وافترسته. تقول إنّها رأت أمعاءه تتدلّى من فم القطّة، وهي تقطر دماً.. تخيّل حالنا لو حدث ذلك فعلاً!

- أمّه أغبى منك.. كيف تصدّقان هذا الهراء؟! اسمع.. أنا صيّاد، وأعرف أنّ مشكلتك بسيطة جداً.

وارتسمت على شفتي صبحي ابتسامةٌ ساخرةٌ، بل كاد يضحك، فهذا الرجل، وإن كان ثرثاراً وبذيء اللسان، فإنّه مرِحٌ ومسلٍّ أحياناً.

ويبدو أنّ الشرطيّ انتبه إلى ما يفكّر به، فقال:

- تسخر منّي؟ طيّب.. سأحاسبك على هذا، ولكن ليس الآن.. ما يهمّني هو هذا الصغير الذي تريد أن تقتله.. اسمع.. أنت لست بحاجةٍ إلى أن تغامر بحياة ابنك في عمليّةٍ يجريها له قتلةٌ أغبياء. أليس في رؤوسكم عقولٌ

تفكّرون بها؟! للغباء حدود؛ أمّا أنت وأمّه، فغباؤكما لا حدود له.. اسمع.. يكفي أن تأخذه إلى أبو سعيد، فتحفظ حياة ابنك، كما ستحفظ مالك.

- أبو سعيد الحلّاق؟!

- نعم، الحلّاق.. لا تسخر منه هو الآخر.. أخبره أن يقصّ الريش الكبير في جناحي ابنك: الريش الكبير فقط؛ أمّا الصغير الناعم، فليتركه كما هو. لن يضرّ وليتنبه جيداً كي لا يجرحه. أعرفهم هؤلاء الحلّاقين عندما يمسك أحدهم بالمقصّ. يركبهم الشيطان، فتنطلق ألسنتهم، وتعمى عيونهم.. الريش فقط. الكبير تحديداً. وبحذرٍ وعلى مهل. هكذا نفعل -نحن الصيادين- مع الحمام، والصقور والشواهين.

ثمّ أضاف:

- لو كنت في صحّتي لتولّيت الأمر بنفسي.. أخبره على أيّة حال أن يأتيني هنا.. سأعلّمه كيف يقوم بذلك..

- سأخبره..

- يبقى أنّ الريش سينمو بعدئذٍ، لذلك يجب أن تتكرّر العملية. تماماً كما تقلّمون له أظافره، أو تحلقون له شعر رأسه. ستعتادون على ذلك. أتوقّع أنّكم ستحتاجون إلى تكرار العملية كلّ ثلاثة أسابيع، أو كلّ شهر. تقصّون له ريش جناحيه اللّعينين، ثمّ تتركونه. لن يتمكّن من الطيران، وإذا فعلها فلارتفاعٍ لا يتجاوز نصف المتر ولمسافةٍ محدودةٍ جدّاً. لن يهرب أبعد ممّا تهرب دجاجة. ألا تستطيع اللحاق بدجاجة؟

وأردف:

- فهمت يا غبي؟

ثمّ رفع إصبعه ملوّحاً بها في وجه صبحي:

- وإيّاك أن تسخر منّي ثانية!

روايات وكتب عربية وعالمية https://t.me/riwaya2025

(5)

كان ينبغي أن يكون ريش جناحيه أقصر مما هو عليه الآن. لقد مرّ ثمانية عشر يوماً منذ آخر زيارةٍ للصغير إلى الحلاّق، وبالحسابات التي اعتادا عليها، هي وصبحي، فإنّ الزيارة المقبلة يفترض أن تكون بعد أسبوعٍ، أو عشرة أيّام.

استوقفتها سرعة نموّ جناحيه هذه المرّة، فأخذت تتساءل عما إذا كان ذلك طبيعياً، وعما إذا كان عليها أن تكون أكثر حذراً خلال الفترة المقبلة، بأن تكثف من عمليات تفقّدها لجناحيه، بحيث تصبح مرّةً كلّ أسبوعٍ مثلاً، أو كلّ عشرة أيّام، عوضاً عن الأسابيع الثلاثة المعتادة.

غير أنّ قلقها لم يتجاوز هذا الحدّ، خصوصاً أنه لم يعد ذلك الرضيع ذا الجسد الخفيف الضئيل الذي يمكن لهبّة ريح متوسطة القوّة أن تحمله. هو اليوم شابٌّ تقريباً، ابن أربعة عشر عاماً، ولكي يتمكّن من الطيران فإنّه بحاجةٍ إلى جناحين مكتملي النموّ، متروكين للطبيعة، لا يتدخّل مقصّ الحلاّق بين الحين والآخر في تشذيبهما، وإزالة أيّ زوائد منهما.

واسترسلت في أفكارها مفترضةً أنّه بحجمه وعمره هذين لم يعد قادراً على الطيران. والأهمّ أنّه، بعد كلّ هذه السنوات، ربّما نسي كيف يقوم بذلك أصلاً. ليس الطيران بالعمل السهل، فهو يحتاج إلى تدريبٍ مستمرّ وشاقّ، وليس إلى جناحين وحسب. أربعة عشر عاماً من الحياة الأرضيّة وقتٌ طويلٌ جدّاً، وكافٍ لأن يجعل الطيران من الماضي.

اطمأنّت إلى أنّ الأمر ليس خطراً على الإطلاق، لكنّها لا تريد أن تغامر أكثر. الحذر واجبٌ في كلّ الأحوال، ولذلك أصرّت على أن تكون زيارة الحلاّق اليوم، وليس أيّ يومٍ آخر.

حرصت، وهو يستعدّ للخروج، على أن يرتدي سترةً، فالجوّ -وإن كان الآن معتدلاً- سيصبح على الأغلب بارداً بعد ساعتين، أو ثلاث، عندما يحين وقت عودته، ثمّ ناولته ليرتين: نصف ليرةٍ لأبو سعيد، والليرة والنصف المتبقّية طلبت منه أن يمرّ على العفة فلك بعد أن ينتهي من حلاقة جناحيه، ويعطيها إيّاها ثمن طقم الملابس الداخليّة التي اشترتها منها في وقتٍ سابق.

دسّها في جيبه، وغادر.

*

يفضي الطريق الترابيّ الذي يقع فيه البيت إلى شارعٍ أعرض، ومعبّد، حيث يتوجّب على الصغير أن يأخذه من جهة اليسار، قاطعاً مسافة خمسمئة مترٍ تقريباً، ليجد نفسه بعدئذٍ عند مدخل الفيحة، وهي ميدانٌ واسعٌ شديد الازدحام منذ الصباح الباكر إلى ما قبل صلاة العصر بقليل، ثمّ يتحوّل في الساعات التالية إلى مكانٍ هادئٍ صامتٍ تقريباً، لا يؤمّه إلا روّاد مقهى الفرات أقدم مقاهي البلدة وأكبرها، والذي يحتلّ إحدى زوايا الميدان؛ أو المصلّون حيث يقع جامع الروضة في الجهة المقابلة للمقهى، أو بعض العابرين الذين تطلّبت وجهات سيرهم المرور به.

يشغل ميدانَ الفيحة، إضافةً إلى المقهى والجامع، عددٌ كبير من المحلاّت يسقونها (الغلّوات) لبيع الخضار، والسمن، والجبن، والصوف، والحبوب، والأعلاف، وإلى يسار الجامع تقع دار البلديّة حيث يعمل صبحي، يليها المخفر، ثمّ قطعة أرضٍ غير مبنيّةٍ تُستعمَل لربط حيوانات الجرّ كالحمير، والبغال.

أمّا من جهة المقهى، فهناك السراي، والمستوصف، والكنيسة. وخلف الكنيسة مباشرةً خفارة أبو الياس، يليها مقهى يسقى (مقهى الشيوعيين) بمؤابته الخشبيّة الكبيرة المصبوغة باللّون الأحمر، والتي يعلوها حجرٌ كلسيٌّ أبيضُ نُقِشت عليه عبارة (هذا من فضل ربّي) بخطّ الثلث الجليّ، وهذا النقش في الحقيقة يعود إلى مرحلةٍ سابقةٍ عندما كان المقهى مخزناً شيّده تاجر تمورٍ عراقيّ الأصل بنيّة استخدامه عوضاً عن المخزن المستأجر

الذي طلب منه أصحابه إخلاءه، ثمّ توفّي بعد انتقاله إلى المخزن الجديد بأسبوع، فكان ذلك نذير شؤم بالنسبة إلى أولاده، فباعوه، وعادوا إلى العراق.

يمثّل المقهى نهاية العمران من هذه الجهة؛ إذ ينفتح الفضاء بعد ذلك على أراضٍ مزروعةٍ بالنخيل، وأشجار الرمّان، والتين، والتوت، فضلاً عن الخضروات، وصولاً إلى ضفّة النهر.

وللوصول إلى محلّ أبو سعيد يتعيّن على الصغير أن يقطع الفيحة من جهة الجامع، متّجهاً إلى حارةٍ جانبيّةٍ ضيّقةٍ تسمّى حارة الطواحين، حيث يقع المحلّ في آخرها تقريباً.

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025

(6)

عند منتصف حارة الطواحين توقّف الصغير عن المشي، فقد شعر بأنّ جناحيه مضغوطان أكثر مما ينبغي تحت السترة الثقيلة التي ألزمته أمّه بارتدائها، وقد زاد من إحساسه بالضيق تعرّقهما، مما سبّب له حكّةً مزعجة.

صحيح أنّ المسافة إلى محلّ أبو سعيد باتت قريبةً، لكنّ الصغير لم يعد يحتمل. خلع السترة، والكنزة، والقميص الداخليّ من تحتها، واختار جزءاً من حافّة الرصيف رأى أنّه نظيفٌ إلى حدٍّ ما، فوضعها عليه. أصبح نصفه العلويّ عارياً تماماً، ثمّ أسبل يديه جانباً ليتمكّن من فرد الجناحين جيّداً، وعلاج هذه الحكّة التي أصابتهما.

في تلك اللحظة انسابت نسمة هواءٍ باردة، فتحرّك الجناحان حركةً خفيفةً. حركة غريزيّة لم يسيطر عليها. ثمّ تسارع تدفّق الهواء، ومعه ازدادت سرعة الجناحين، فارتفعا به عن الأرض، ليس بعيداً، بل بمقدار شبرٍ تقريباً.

بهذه البساطة حدث الأمر...

ولم يفاجئه ذلك.

الحقيقة أنّ هذا الطيران لم يكن جديداً عليه كلّيّاً. كان قد جرّبه من قبل عدّة مرّات، ولكن داخل غرفته، ومنفرداً، وبسرّيّةٍ بالغةٍ، بما لا يتيح لأبيه، أو أمّه، أن يشعرا به، وغالباً ما يفعل ذلك ليلاً، عندما يطمئنّ تماماً إلى أنّهما خلدا إلى النوم، ولن يكون بوسعهما معرفة ما يجري.

اكتشف هذه القدرة في مصادفةٍ تشبه مصادفة اليوم؛ إذ كان قد خلع قميصه داخل غرفته ليرتدي ملابس النوم، عندما اقتحمت الغرفةَ هبّةُ ريحٍ قويّةٍ من النافذة المفتوحة، فتحرّك جناحاه، وارتفعا به في الهواء.

لم يستغرق طيرانه حينها أكثر من بضع ثوانٍ، عاد بعدها إلى الأرض مصفرّ الوجه، يلهث تعباً وذعراً، ولم ينم ليلته تلك بسبب الكوابيس التي ظلّت تهاجمه كلّما أغمض عينيه.

أمضى اليوم التالي كلّه ذاهلاً مشوّش الذهن، يتساءل عمّا إذا كان ما جرى أمس حقيقيّاً، أم مجرّد وهم. وقادته شكوكه في النهاية إلى الغرفة ثانيةً، وفي نيّته أن يفعلها ليتأكّد فقط. أحكم إغلاق الباب خلفه، وخلع قميصه، وفرد جناحيه، وحرّكهما.

على هذا النحو تطوّرت علاقته بجناحيه. ثمّ أصبح الطيران عادةً يمارسها بشكلٍ منتظمٍ تقريباً. يفعل ذلك عندما يكون ريش جناحيه قد نما إلى الحدّ الذي يقتضي منه الذهاب إلى الحلّاق في أقرب وقتٍ لتقصيره. يغلق الباب على نفسه، ويجرّب.

لم ينجح في التحليق أعلى من هذا الشبر، ولا وقتاً أطول من نصف دقيقةٍ يسقط بعدها على الأرض، وهو يلهث إعياءً، وقلقاً، واستثارةً كما في أوّل مرّة. والحقّ أنّ ذلك الطيران على قصر مدّته، وضآلة المسافة التي يرفعه بها عن الأرض كان مرهقاً جدّاً، وكثيراً ما شعر بعده بالحاجة إلى النوم، تماماً كما لو أنّه أمضى ساعاتٍ في جريٍ سريعٍ متسلّقاً جبلاً شاهقاً شديد الوعورة.

طيرانٌ خاطفٌ، لكنّه كان كافياً ليقنعه بأنّ ما يحملهما على ظهره هما جناحان حقّاً، وصالحان للاستعمال. يحرّك ذلك في داخله إحساساً باللذّة، يبدأ خفيفاً رقيقاً، ثمّ يتسارع داخل عروقه، فيشتعل جسده، ويتدفّق العرق غزيراً من مسامات جلده كلّها، ولا تنتهي المغامرة إلا برعشةٍ تلي هبوطه إلى الأرض، وتتواصل وقتاً غير قصير بعد ذلك.

غير أنّ هذه اللذّة الساحرة لم تكن خالصةً تماماً، وظلّت مشوبةً بما يكدّرها؛ إذ ما يكاد ينهض من شبه

الغيبوبة اللذيذة التي يستغرق فيها حتى يجد قلبه مخنوقاً بغصةٍ ما. شعورٌ مؤلمٌ بالذنب، أو العار، ذلك أنّه في قرارة نفسه كان يرى في طيرانه السرّيّ هذا عصياناً غير لائقٍ لأبويه اللّذين لا يكفّان عن تحذيره.

- الطيران خطرٌ جداً.. البشر يمشون على الأرض فقط.

يقول له صبحي، ويشرح له لِمَ هو خطر.

فهناك احتمال السقوط نتيجة التعب مثلاً، أو نتيجة دُوارٍ مفاجئٍ يُفقد الإنسانَ السيطرة على جناحيه.

هناك أيضاً الريح التي قد تشتدّ، وتحمل الشخص الطائر بعيداً، باتّجاه الصحراء الواسعة الممتدّة إلى ما لا يعلم أحد نهايته، حيث يستحيل العثور عليه بعد ذلك، ليكون مصيره الموت جوعاً وعطشاً.

وهناك احتمالٌ بأن يصوّب صيّادٌ أحمق بارودته عليه، ويطلق النار باتّجاهه ظنّاً منه أنّه إوزّةٌ شاردة، أو لقلقٌ، أو أيّ طائرٍ كبيرٍ مما يعبر هذه السماء بين الحين والآخر.

ثمّ يختم حديثه بأن يذكّره بحلم أمّه القديم الذي بقرت فيه القطّة الجائعة بطنه، والتهمت أحشاءه.

لكنّ صبحي يطمئنه مع ذلك بالقول:

- أبو سعيد حلاّقٌ بارعٌ، وسيقضهما لك جيّداً، لذلك لا تخشَ شيئاً. نحن نثق به. المهمّ أن نكون لديه في الموعد دائماً.

ويوصيه بعدئذٍ قائلاً:

- تجاهلهما.. تصرّف كما لو أنّهما ليسا موجودين.. ومستقبلاً سنجد حلاً نهائياً لهذه المشكلة.

مشكلة؟ كانت الكلمة تستوقفه على الدوام، مشعرةً إيّاه بأنّ ما يجري غير طبيعيّ. مرضٌ مستعصٍ يصعب علاجه. إعاقةٌ يعاني منها. عاهةٌ ابتلي بها.. ولا يدري إن كان كلام أبيه حول الحلّ حقيقياً وجاداً أم هو محاولةٌ كاذبةٌ للتخفيف عنه.

*

جرّب هذا الطيران عدّة مرّات، ولم يشعر في لحظةٍ بقدرٍ من اللذّة، والدهشة، والفرح، والانتشاء كهذا الذي يغمر كيانه الآن. شعورٌ جديد لم يعهده، وقد فاجأه أنّه لم يترافق - كما جرت العادة- بذلك الإحساس الثقيل بالذنب الذي من شأنه أن يضع حدّاً لتوهّجه وطغيانه. بدا له – كما لم يحدث من قبل- أنّه يمارس حقّاً من حقوقه البسيطة، كالمشي، أو الطعام، أو الشراب. إنّهما جناحاه، جزءٌ منه، وليسا عاهةً تعيقه عن ممارسة حياته. لا يختلفان عن ساقيه اللّذين لم يمنعه أحدٌ عن المشي بهما، أو الجري، أو ركل الكرة! لم يقل له أحدٌ إنّهما مرض، وإنّ عليه أن يكون حذراً إذا ما فكّر في لحظة طيشٍ، أو غباءٍ، أو جهلٍ أن يحرّكهما، أو حتى أن يشعر بوجودهما!

غير أنّه لم يُطل التفكير في ما يجري، كما لم يقاوم تدفّق تلك المشاعر داخل كلّ خليّةٍ من خلايا جسده. لم يفعل شيئاً. أسلم نفسه فقط لتيّار الهواء يدفعه إلى الأمام مسافاتٍ إضافيةً، ثمّ يعلو به شيئاً فشيئاً بما يتجاوز الشبر الذي اعتاد عليه في خلوته بين جدران غرفته الصغيرة المغلقة، وهو يمارس طيرانه السرّيّ. ولم تكن سوى لحظات حتى أصبح على ارتفاع مترين تقريباً.

نسي مخاوفه كلّها، وتابع تحليقه. لم يفكّر في شيءٍ على الإطلاق. كلّ ما كان يتحرّك داخل رأسه أن يعيش هذا الاكتشاف الجديد إلى آخره.

(7)

كان ما يزال رضيعاً، فهو لا يذكر بالطبع شيئاً عن طيرانه الأول عندما أفلت من يد القابلة لحظة ولادته، ولا الثاني بعد ذلك ببضعة شهور عندما تحصن بالخزانة عند حافتها من الأعلى تاركاً أمه لذهولها، وعجزها، وتضرّعاتها إليه بالكف عن مشاغباته الصبيانية الخطرة.

أمّا الطيرانات السرّية المشوبة بأحاسيس الإثم والخوف، التي كان يمارسها بين الحين والآخر بين جدران غرفته بعد أن كبر قليلاً، فقد كانت صغيرةً، وخاطفةً، ومحدودةً لا تتجاوز به الشبر، أو الشبرين فوق سطح الأرض. وهذه -بكلّ تأكيد- لا تستحقّ أن تدخل ضمن الحسابات.

تجارب منسيةٌ، أو عابرةٌ لا أثر لها، كأنها لم تحدث في الأصل. لذلك لم يكن هذان الجناحان، على مدى السنوات الفائتة كلّها، يعنيان له شيئاً. عضوان زائدان يحملهما على ظهره بدون فائدةٍ واضحة. لم يكن لهما أيّ دور سوى أنهما فرضا عليه نمط حياةٍ خاصاً لا يخلو من مشقّةٍ واضطراب.

لم يفهم في يومٍ من الأيام لماذا يمتلك جناحين!

سؤالٌ أخذ، منذ وقتٍ قريب، وبعد أن قطع صلته بمرحلة الطفولة الأولى، يواجهه بكلّ غرابته، واستثنائيّته، وشذوذه، وعندما يحيله إلى أبيه، أو إلى أمه، لا يجد منهما ما يساعده في العثور على إجابةٍ مقنعة. مجرّد ردودٍ مقتضبةٍ يراد منها التهرّب من السؤال، عجزاً على الأغلب، أكثر من الرغبة الجادة في المساعدة.

ظلّت علاقته بجناحيه ملتبسةً وغامضة. لم يرتح لوجودهما، لا سيما مع ما كانا يفرضانه عليه من أعباءٍ مضاعفةٍ لا يعاني منها الآخرون عادةً، كالتنظيف مثلاً؛ إذ لا يكفي أن يغسلهما كما يغسل سائر أعضاء جسده، بل لا بدّ من عنايةٍ خاصةٍ لتخليصهما مما كان يعلق بهما أحياناً كثيرةً من قُرادٍ، أو قملٍ، أو براغيث، أو غيرها من الحشرات الصغيرة المتطفّلة والمزعجة.

ويزداد العبء ثقلاً مع حالة الرقابة المتواصلة المطلوبة منه ومن أبويه تجاه الريش كي لا يتجاوز نموّه الحدّ الآمن الذي رسمه أبو محارب الشرطيّ منذ سنوات.

كما لا بدّ من الصبر على ذلك الحلّاق العجوز الذي لا يكفّ عن الثرثرة، وعن إسداء النصائح السخيفة له بأن يتجنّب تناول لحوم الطيور، بما في ذلك الدجاج الذي كان مغرماً به، ففيها ما يعجّل من نموّ الريش كما يزعم، وأن يكثر بالمقابل من أكل الأسماك التي لم يكن يطيقها.

وهناك أيضاً أمه وأبوه اللّذان كانا دائماً أسيري حالةٍ خانقةٍ من القلق، والارتياب، والوجوم، لا يخرجان منها إلّا نادراً.

وهناك ردود أفعال الآخرين كلّما عرفوا أنّه يمتلك جناحين.. سخرية بعض الناس منه، لا سيما الأولاد من جيله، أو ممن يكبرونه بقليل؛ ونظرات الشفقة التي يكرهها في العيون كما لو أنّ ما يحمله هو مرضٌ قاتلٌ كامنٌ سيظهر يوماً ما، وحينها سيدمّر حياته بأكملها؛ والأسئلة الغريبة التي يحاصره بها الفضوليّون؛ وملامح الإنكار والتشكيك، والتكذيب التي تكسو وجوه بعضهم.

يضاف إلى هذا كلّه الطاقة المستنزفة في مقاومة الرغبات القويّة والمتواصلة لاستكشاف ما يعنيه وجود جناحين على الظهر، ذلك أنّ هذه الرغبات لا تكفّ عن الحركة، فتطلّ برأسها محدثةً أشكالاً مختلفةً من الفوضى داخل روحه، بتحريضها له على ارتكاب حماقةٍ كبرى يتحدّى بها الآخرين، محطّماً الأسوار الشاهقة التي ما زال يختبئ خلفها مدارياً عاره الكبير في الارتفاع عن سطح هذه الأرض، ولو أشباراً قليلة.. والحقيقة أنّ هذا الجهد المبذول لترويض تلك الرغبات، والسيطرة عليها، وكتم صوتها، كان أشدّ ما يؤلمه في جناحيه.

كلّ ذلك جعل مما حدث اليوم تجربةً مختلفةً تماماً. تجربة جديدة ومدهشة، غيّرت الكثير من انطباعاته، وجاءت مخالفةً لما اعتاده من مشاعر ثقيلة تجاه جناحيه.

هذا، على الرغم من نهايتها العنيفة نوعاً ما.

حصريا على روايات وكتب
عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025

(8)

كان يتقدم إلى الأمام كسهمٍ يشقّ الهواء، خفيفاً، ورشيقاً. كان ينساب بسلاسةٍ كأيّ طائرٍ مهما كان يراه ويراقبه على الدوام، مأخوذاً بما يتمتّع به من قدراتٍ كثيراً ما راوده الإحساس بأنه يمتلك ما يشبهها، لكنه لم يفهم لِمَ هي مقيّدة، ولا يُسمح له باستخدامها!

لم يجد صعوبةً في الارتفاع، أو الانخفاض، ولا في تغيير سرعته. مرونةٌ، وانسيابٌ، ومتعةٌ لا حدود لها.

استغرقت الرحلة ما يزيد على الثلاثمئة متر. مسافة كافية ليستعيد خلالها كلّ ما تراكم في ذاكرته من صورٍ وأحداثٍ، وحكاياتٍ، ومواقف تتّصل بجناحيه: الأبواب المقفلة، والستائر المسدلة، والعيون المتربّصة، والآذان المترصّدة، والهمسات، والأقفاص، والأشجار، والقطط، وبالذات الإيقاع الرتيب المؤلم والمتواصل طيلة أربعة عشر عاماً للمقصّات، وهي تروح وتجيء على جناحيه تجرّدهما من ريشهما.

ثلاثمئة متر، لكنها كانت كافيةً ليدرك -متجاوزاً صغر سنّه- حجم الحرمان الذي كان يعاني منه في حياته الأرضيّة السابقة، وليدرك كذلك أنّه موعودٌ بعالمٍ جديدٍ لا يعلم شيئاً عنه، لكنه بكلّ تأكيدٍ مختلفٌ، ومثيرٌ، وجديرٌ بأن يعيشه إلى أقصاه.

رأسه الصغير كان مزدحماً بالأفكار، والخيالات، والأحلام، تتناسل داخله، وتتشابك، ويصدم بعضها بعضاً، مولّداً شراراتٍ مضيئةً تكشف أمامه طرقاً وآفاقاً أقرب ما تكون إلى عوالم السحر التي كانت تدور فيها حكايات أمّه وجدّتيه مهما لا يزال يذكره، وينبهر به.

مستسلماً لكلّ ذلك، ومستغرقاً فيه، ومنتشياً بما يغمره به من طاقةِ فرحٍ وحماس، واصل تحليقه.

ثمّ واجهته تلك المشكلة التي ظنّها هينةً وطارئةً، وهي عجزه عن التحكّم في الوقت المناسب بالاتّجاه يميناً، أو يساراً. كانت استجابة جناحيه بطيئةً جداً وشاقّةً كلّما أراد تعديل اتّجاهه، لذلك عندما وجد نفسه فجأةً في مواجهة عمود الكهرباء لم يتمكّن من تفاديه. ارتطم به، وسقط أرضاً.

على الرغم من الألم الذي عمّ جسده كلّه من جرّاء اصطدامه بالعمود فقد عدّ ما عاشه قبل لحظات استثنائياً في درجة جماله وإثارته. أقصى ما بدر منه أنّه كزّ على أسنانه، ومرّر أصابعه على جبينه ليتأكّد من أنّه لم ينزف دماً. كانت ثانيةً، أو ثانيتين فقط، ثمّ عاد إلى حالة الانتشاء التي غمره بها طيرانه على ذلك الارتفاع، وإلى تلك المسافة، مهما لم يحدث معه من قبل.

تجاهل ألمه، وتمنّى لو أنّ مقصّ الحلّاق لم يعبث بهذين الجناحين، ذلك أنّ التشوّه الذي أصابهما كان على الأرجح وراء المشكلة التي عانى منها في توجيه نفسه، ولولا ذلك لتمكّن من التحليق أعلى بكثير، وأبعد بكثير.

وللحظةٍ تملّكه إحساس بالغضب تجاه الحلّاق، بل تجاه أبويه أيضاً.

ثمّ فكّر في ما عساه يقول لأمّه عندما تراه في حالته المزرية هذه.

خطر له أن يختلق حكايةً عن مشاجرةٍ مع مجموعة أولاد، أو عن كلبٍ ضالٍّ هجم عليه، أو حفرةٍ سقط فيها، أو حجرٍ تعثّر به.

وجد نفسه أمام وفرةٍ من الأعذار والذرائع التي يمكن أن يبرّر بها أمام أمّه كلّ هذه الخدوش، والكدمات، والرضوض التي أصيب بها في رأسه، وصدره، وساقيه، وقدّر أنّها لن تكذّبه، فمثل هذه الحوادث ليست نادرةً مع أولادٍ في عمره، وهو نفسه تعرّض لبعضها في أوقاتٍ سابقة.

لكنه لم يضع ضمن الاحتمالات مطلقاً أن يعترف لها بطيرانه. استبعد ذلك تماماً، إذ بدا له أنّ اعترافاً أحمقَ كهذا سيجرّ عليه الكثير من المشكلات. سيكون بداية حالةٍ من التضييق والملاحقة أقسى مما عاشه من قبل بما لا يستطيع تصوّره، أو تقدير حجمه الآن.

كان بوسعه أن يسترسل في توقّعاته عمّا يمكن أن يترتّب على ذلك الاعتراف من آثارٍ لن ينجو منها، وكان بوسعه أيضاً أن يواصل البحث عن أسبابٍ إضافيّةٍ يختلقها لتبرير ما لحق به من إصابات، لكنّه كفّ عن ذلك كلّه، فقد أضاء رأسه فجأةً بخاطرٍ مختلف.

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025

الفصل الثالث

(1)

استقبله جالساً على الأريكة الخشبية. مدّ يده نحوه وصافحه من غير أن ينهض، وأشار له إلى كرسيٍ من الخيزران في الزاوية، فجرّه وجلس قبالته، تفصل بينهما طاولةٌ صغيرةٌ من البلاستيك فوقها إبريق شاي، وكأس واحدةٌ نصف ممتلئةٍ، ووعاءٌ للسكّر، وعلبة سجائر، وقدّاحة.

كان بملابس بيتيّةٍ خفيفةٍ مكوّنةٍ من سروالٍ فضفاضٍ إلى ما دون الركبتين، وفانيلة نصف كُمّ لها ياقةٌ كبيرة متهدّلة تكشف عن مساحاتٍ واسعةٍ من صدره، ويضع على كتفه الأيسر منشفةً كان يستعملها بين الحين والآخر لمسح العرق عن جبينه، أو رقبته، وكانت جميعها بيضاء اللّون، إلّا أنّها شديدة الاتّساخ، بحيث فقدت لونها الأصليّ، واكتسبت ألواناً جديدةً تتدرّج من الأصفر الباهت إلى البنّيّ المحروق، مع بقعٍ متفرّقةٍ من الأزرق، والأسود، والأحمر القاتم الذي قد يكون أثراً لدمٍ قديم. يضاف إلى ذلك أنّها كانت ممزّقةً في مواضع كثيرة.

تأمّله مطوّلاً، واستغرب أن يكون شخصٌ على هذا القدر من الهزال حيّاً!

هيكلٌ عظميٌّ مكسوٌّ بالجلد.. فقط.. لا شيء أكثر من هذا. بل لقد خُيّل إليه أنّه لرقّته وهشاشته ليس جلداً، بل هو طلاءٌ قديمٌ يغطّي العظام. جلدٌ رقيقٌ جافٌ مسودٌّ تقريباً، من شأن نقرة إصبعٍ متوسطة القوّة، أن تجعله يتقصّف ويتطاير في الهواء قشوراً.

هنالك رائحةٌ كانت تنبعث منه. رائحةٌ جيفةٍ تتفسّخ. ليس لحمه بكلّ تأكيد، فهو لا يكاد يملك شيئاً منه أصلاً. قد تكون كائناتٌ دقيقةٌ تعيش داخل أخاديد جلده العميقة والطويلة، ثمّ يغمرها العرق الذي ينضح منه، فتختنق، وتتحلّل، وتطلق رائحتها اللزجة الدبقة تلك.

عظامه، بدورها، كانت تصدر صريراً عالياً كلّما أتى بأدنى حركة، سواءٌ وهو يهشّ بيده ذبابةً كانت تحوم حول وجهه، أو وهو يدير رأسه لغرضٍ ما، أو وهو يعدّل من جلسته، أو وهو يقرّب كأس الشاي من فمه، أو وهو يتكلّم أيضاً -خاصّةً وهو يتكلّم- حيث يتداخل الصوت الخارج من حنجرته مع الصوت الصادر عن عظام فكّه في أثناء احتكاكها ببعضها، ما يجعل العديد من الكلمات عصيّاً على الفهم.

- لقد كبرتْ أيّها الصغير.. كبرتْ، وتوشك أن تصبح عجوزاً.. لكنّك وسيم.. شارباك جميلان على الرغم من ابيضاضهما.. حتّى الصلعة.. لعلمك، هنالك نساءٌ كثيراتٌ يعجبهنّ الرجل الأصلع.

وسمع الصغير صوتاً غريباً ظنّه لأوّل وهلةٍ صدى قادماً من بعيد لصفائح من المعدن يحرّكها الهواء، فيضرب بعضها بعضاً، ثمّ سرعان ما عرف أنّها ضحكةٌ خرجت من حنجرة الرجل، فابتسم، وقال:

- شكراً يا أبو محارب.. المهمّ أنت.. كيف حالك؟

تجاهل الشرطيّ السؤال، وأكمل:

- وبمناسبة الحديث عن الصلع، هل تعلم أنّ عقتك فلك نبت لها شعرٌ في رأسها؟ تزوّجت بعد رحيلك بسنةٍ تقريباً، وخلال أقلّ من شهر كان الشعر قد بدأ يظهر في رأسها.. رأيتها مرّةً، وكانت جميلة.

- ما تزال حيّة؟

- لاااا أيّها الصغير.. لا.. لا تتكلّم عن الحياة.. لم يبقَ سواي هنا.. أبوك، وأمّك، وخالك، وخالتك زينب، وزوجها، وأبو سعيد الحلّاق، والفرّان، والقهوجي، وأم جعفر القابلة، وأبو عمشة، وميزر، وجوزفين معلّمة الإنجليزي، وأختها الخيّاطة فيوليت.. جميعهم أعطوك أعمارهم. لم يبقَ منهم أحد. الذين يعيشون في هذا المكان الآن هم أشخاص لا تعرفهم.. أنا الذكرى الوحيدة الباقية من تلك الأيّام.

- رحمهم الله.. يسعدني أنّك بخير.

وضحك الشرطيّ ثانيةً، وبالطريقة الصاخبة نفسها، ثمّ قال:

- بخير؟ الحمد لله على أيّة حال.. بخير طالما كان بوسعي الذهاب إلى المرحاض.. يكفيني من خيرات الحياة هذا القدر.

ولفتت انتباهه عينا الشرطيّ، ذلك أنّ كلّ ما فيه كان باهتاً، ومحطّماً، وبارداً باستثنائهما. لعلّهما الوحيدتان اللّتان يمكن القول إنّهما تمتلكان شيئاً من مقوّمات الحياة وعناصرها. عينان صغيرتان، غائرتان، لكنّهما متّقدتان. ولاحظ أنّ اتّقادهما قد ازداد عندما ضحك، ثمّ انبعث منهما قضيبٌ من الضوء عندما قال:

- ها.. ما الذي جاء بك أيّها الصغير بعد كلّ هذا الوقت؟

كلّ هذا الوقت؟!

استوقفت الصغيرَ هذه العبارةُ، ثمّ سأل نفسه:

- صحيح.. كم هو هذا الوقت بالضبط؟!

وأراد أن يحسبها، فذهنه كان فارغاً تقريباً من أيّ إجابة، ولو كانت تقريبيّة. ولأنّه استشعر صعوبة العمليّة، لاسيّما مع حالة التشويش التي كانت تعصف بذهنه من جزاء الروائح التي لا تكفّ عن إطلاقها تلك الكائنات النافقة المتراكمة داخل التجاعيد في جسد الشرطيّ، إلى جانب صرير عظامه الحادّ؛ فقد صرف النظر عن هذا الجزء التفصيليّ الثانويّ من السؤال، وفضّل التعليق على جزئه الأهمّ:

- بصراحة، لا أعرف بالضبط ما الذي حملني على المجيء.. لنقل إنّه.. الفضول.. نعم.. ليس أبعد من ذلك.

أضاءت عينا الشرطيّ، وانطلق صدى الصفائح المعدنيّة، وهي تخبط بعضها. أجفل الصغير لحظةً، ثمّ تذكّر أنّها طريقته الخاصّة في الضحك.

- أردت فقط أن أتأكّد.. أحياناً أشكّ في حقيقة ما يجري.. أتعامل مع الأخبار التي تصلني على أنّها أحداثٌ في حكايةٍ من الخيال فقط.

أضاف الصغير، فعلّق الشرطيّ بالقول:

- هكذا؟ لم تأتِ لتراني إذاً؟

- بصراحة؟ لا. لم تكن غايتي أن أراك. سأعترف لك بشيء. عندما جئت لم أكن أتوقّع أن أجدك حيّاً. معي حقّ طبعاً، فالزمن الذي مرّ طويلٌ جدّاً.. أليس كذلك يا أبو محارب؟ ومع هذا فقد كان في ذهني أن أزورك، ولكن ليس هنا.. بل في قبرك.. أن أقف على قبرك، وأقرأ الفاتحة على روحك، متمنّياً لك حياةً جديدةً أكثر سلاماً.

وانطلق صدى الصفائح المعدنيّة بإيقاعٍ أسرع وأعلى هذه المرّة، بينما الشرطيّ يُشير بيده إلى الجدران العارية المتهالكة، ثمّ إلى الباب المتصدّع، والنافذة التي تحطّم زجاجها، فسدّها أحدهم – ليس الشرطيّ العاجز حتماً- بأكياسٍ من النايلون.

ضحك، ثمّ تمتم بكلماتٍ حال صرير فكّيه دون وصولها إلى أذني الصغير كاملةً، ما اضطرّه إلى بذل جهدٍ إضافيّ لترميمها وسدّ الفراغات فيها.

- قبر.. لم تخطئ أيّها الصغير.. لم تخطئ.. إنّه قبرٌ.. تكون (....) كأبيك لو قلتَ إنّه ليس قبراً.

وقاده تفكيره السريع إلى أنّ الكلمة المفقودة هي (غبيّ) بلا شكّ.. لم يتغيّر هذا العجوز.. أراد أن يبتسم، لكنّ حديث القبر خنق الابتسامة قبل أن تولد.

التزم الصمت. لم يعلّق بشيء، وبدا أنّ الشرطيّ لا رغبة لديه هو الآخر في أن يطول الحديث في هذا

الموضوع أكثر من ذلك. مدّ يده إلى كأس الشاي، وأتى على ما كان متبقياً داخلها دفعةً واحدةً.

- والآن.. لنتكلّم في ما هو أجدى من ذلك أيّها الصغير.. جناحاك.. ما أخبارهما؟ هل جئت طائراً؟

نظر الصغير في عيني الشرطي، فرأى الضوء المنبعث منهما شديد السطوع إلى درجة أنه أزاغ بصره، فاضطرّ إلى الإشاحة بوجهه عنه. تمتم في صوتٍ أقرب إلى الهمس:

- لا.. ستكون مخاطرةً لو فعلت.. لا أريد لأحدٍ أن يراني.

- يراك؟ اسمع أيّها الصغير.. أنت لم تفهم بعدُ ما يجري هنا.. هنا لم يعد بين الناس من يمتلك الوقت لينظر إلى الأعلى بحثاً عن شخصٍ طائر. رؤوسهم جميعاً إلى الأسفل. إلى الأسفل فقط. يبحثون عن لقمة الطعام.. في هذه الأيام، قطعة خبزٍ يابسة في كومة قمامة هي ثروةٌ أيّها الصغير، ثروةٌ أكبر ممّا قد يخطر في ذهنك.

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية https://t.me/riwayat2020

(2)

بغضّ النظر عمّا إذا كانت ثلاثين عاماً، أو أربعين، أو خمسين، أو أقلّ، أو أكثر، فقد كان الوقت قبيل المغرب، عندما وجد الصغير ابن الرابعة عشرة نفسه أمام بيت أبو محارب الشرطي مساء ذلك اليوم، بالخدوش، والكدمات، والرضوض التي أصيب بها في رأسه، وصدره، وساقيه، وربّما في جناحيه أيضاً.

ليست لديه فكرةٌ عمّا قاده إليه. يسأل نفسه، ولا يجد جواباً إلى اليوم. فالرجل لم يكن يعني له شيئاً، كما أنّه لم يره إلّا مرّاتٍ قليلة جدّاً، لأنّه منزوٍ في منزله، لا يغادره إلّا نادراً.

لقد أخبروه بما فعله يوم هرب عند ولادته وحطّ على شجرة الكينا العملاقة.. كما أخبروه بدوره في إقناع أبيه بصرف النظر عن بيع بيته لإجراء العمليّة الجراحيّة له بغرض استئصال جناحيه.. ثمّ حدث ذات يوم أن دخل أبوه المنزل، وفي يده كتاب. قال له:

- زرت اليوم عمّك أبو محارب، وسألني عنك.. هذا الرجل أصبح خرفاً. عند مغادرتي أعطاني هذا الكتاب لك. كاتب مصريّ يقول إنّه مشهورٌ جدّاً.. ما اسمه؟

وقرّب الكتاب من عينيه، محاولاً تهجئة اسم الكاتب:

- الـ.. مـنـ.. فلو.. طي.. اسمٌ غريبٌ وصعب!

وضحك صبحي، وهو يناوله كتاباً عنوانه (النظرات).

ثمّ عرف بعدئذٍ أنّه يمتلك مكتبةً كبيرةً. عدّة مئات من الكتب.

فقط..

كان هذا أقصى ما يربطه بالرجل، وما عدا ذلك فأحاديث متفرّقة وعابرة كان يسمعها، فيفهم بعضها، وبحكم عمره لا يفهم بعضها الآخر، عن أنّه غريبٌ عن البلد، وأنّ أصوله بدويّة، ويقال إنّ أباه كان ملاحقاً بثأر، فجاء إلى المدينة هارباً مع زوجته وطفله ابن السنوات الثماني، وأقام فيها يعمل في البناء تارةً، وبيع الخضار تارةً أخرى، وفي العتالة، وتجبير الكسور، ومهنٍ أخرى كثيرة، إلى أن توفّي، وهو دون الخمسين من عمره بالكوليرا.

يتكلّمون كذلك عن مهارته في الصيد، وعن الذئبين اللّذين تمكّن من اصطيادهما بفخّ نصبه لهما، وعن عمله شرطيّاً بضع سنوات من عمره، وعن مشاركته في الحرب التي يسمّونها الثمانية والأربعين، واستقبال الملك عبد الله له في عمّان بعد الحرب، وعن الروماتيزم الذي ضرب ركبتيه واضطرّه إلى التقاعد المبكّر، وزوجته التي ماتت بالتهاب الزائدة الدوديّة، وأولاده المهاجرين، وإلمامه باللغتين الإنجليزيّة، والفرنسيّة، وأشياء أخرى تتداولها الألسنة عنه في كثيرٍ من الإعجاب غالباً، وإن تخلّل الأحاديث أحياناً –كما كان الصغير يسمع من أبيه كلّما ذُكِر اسم أبو محارب- ما يدلّ على أنّ الرجل يبالغ في تصوير حجم مهاراته، لا سيّما ما يتّصل منها بعمله في سلك الشرطة، والألغاز التي كان له الفضل في حلّها عندما كان يخدم في العاصمة. كما كانت هنالك بعض الشكوك حول حكاية استقبال الملك له؛ إذ يقال إنّه كان مجرّد حارسٍ لشخصيّةٍ كبيرةٍ قابلت الملك، وهو لم يحضر اللقاء، ولم ير الملك إلّا من بعيد؛ إذ لم يسمحوا له بدخول مكتبه مع الشخص الذي كان برفقته، بل بقي في الصالة ينتظر.

لذلك، كان وقوفه أمام بيت الشرطي بالذات بعد الحادث الذي تعرّض له في ذلك اليوم غريباً جدّاً، وغير مفهوم.

كان يمكن أن يلجأ إلى خالته زينب مثلاً، ويتكلّم معها. زينب قريبةٌ إلى قلبه، وهي صديقته قبل أن تكون خالته على الرغم من فارق العمر بينهما. صحيح أنّه لا يطيق زوجها المتعجرف العائد من الكويت محمّلاً بالمال، والذي يتعامل معه دائماً على أنّه طفلٌ معاقٌ بسبب جناحيه، ولكن كان من الممكن أن يزورها في غيابه، وهو

كثير الغياب بطبيعة الحال. كان خياراً منطقياً وواقعياً جداً، وقد فكّر فيه لحظةً، لكنه لسببٍ ما، تغاضى عنه سريعاً، وأسلم نفسه لقدميه تقودانه إلى بيت الشرطيّ.

كان الباب مفتوحاً. دفعه، ودخل، فرآه على الأريكة نفسها التي يجلس عليها الآن -وكانت جديدةً آنذاك - كما كان في الوضعيّة نفسها، لكنّ ذلك لم يكن في الغرفة، بل في باحة البيت، حيث الحديقة الصغيرة التي تشغلها شجرتا رمّانٍ وكبّاد، إضافةً إلى شجرة تينٍ صغيرة يبدو أنّها زُرعت حديثاً، وفي الأسفل مساكب للنعنع، والبصل، والفجل، والبقدونس، وهنالك مصباحٌ كهربائيٌ على الحائط الأيسر يشتبك ضوؤه البرتقاليّ بالظلال التي يشكّلها، فيعطيان معاً عمقاً واتّساعاً للمكان أكبر من الحقيقة.

كان الراديو حينها مفتوحاً على أغنيةٍ لإحدى المطربات العراقيّات.

لم ينتبه الشرطيّ إلى دخوله إلّا بعد لحظات، وما إن وقعت عيناه عليه حتّى انتفض، وأخذ يصرخ:

- الله أكبر عليهم هؤلاء العراقيين! من أين يأتون بهذا؟! سيقتلني الحزن الذي يفيض من حناجرهم.. تعال أيّها الصغير.. تعال واسمع.

ويذكر الصغير أنّ الشرطيّ كان يحرّك يديه في الهواء كأنّ شبحاً كان يترنّح به، وهو يحاول إبعاده. أرغبته الخاطرة، وفكّر في العودة، لكنّه عندما استجمع قواه، وتأمّل المشهد على نحوٍ أكثر هدوءاً وتركيزاً اقتنع أنّه لم يكن هنالك أيّ شبح، لكنّها حالة طرب وانتشاء أفقدته صوابه.

كان الرجل يحرّك ذراعيه صعوداً وهبوطاً، صعوداً وهبوطاً، ثمّ صعوداً وهبوطاً.. هكذا، إلى درجة أنّه خيّل إليه أنّهما ستحلّقان به في الهواء بعيداً عن أريكته.

يذكر ذلك، ويذكر معه شيئاً آخر.

إنّه إذ يلاحظ الضوء المنبعث من عينيه الآن، ينتبه إلى أنّها ليست المرّة الأولى. لقد رآهما تضيئان بالطريقة نفسها في ذلك اليوم، وكان الضوء يتوهّج على إيقاع الأغنية شدّةً وضعفاً. بدت عيناه كأنّ سلكاً خفيّاً يصلهما بحنجرة المطربة، فتسطعان كلّما علت نسبة الحزن المتدفّق منها. وفي لحظاتٍ معيّنة كان الضوء يلتفّ حول نفسه في دورانٍ متسارعٍ ليتكثّف شيئاً فشيئاً، وصولاً إلى نقطةٍ يتحوّل معها إلى مادّةٍ سائلةٍ رآها بوضوحٍ، وهي تغسل وجنتيه.

وقف الصغير يومها صامتاً يتأمّل المشهد، وهو مأخوذٌ بحال هذا الرجل. انتظر إلى أن انتهت الأغنية، وانطلقت موسيقا عسكريّة صاخبة تعلن حلول موعد نشرة الأخبار، فأغلق الشرطيّ الراديو، ثمّ مسح دموعه بكمّ قميصه، فظهرت عيناه، وقد استعادتا درجة سطوعهما الطبيعيّة التي تُرى لدى جميع البشر.

- ها.. تعال أيّها الصغير!

ثمّ سأله:

- تبدو متعباً.. هل آذاك أحد؟

- لا.

وأضاءت عينا الشرطيّ مرّةً أخرى، ولكنْ على نحوٍ خاطف. شيء يشبه لمعة البرق.

- جناحاك؟

- نعم.

ثمّ أضاف، وهو يبكي:

- عمّي أبو محارب.. لا أريد لأحدٍ أن يعبث بجناحيّ بعد الآن.

رأى الصغير الشرطي يتّكئ بيديه على أرضية الأريكة، ويتململ محاولاً رفع جسده للنهوض. ثم تناول عكّازه، وبخطواتٍ بطيئةٍ متعثرة أخذ يتقدّم نحوه. لحظ أنه كان طويل القامة، أطول من أبيه، وربّما من أيّ شخص رآه في حياته.

وقف قبالته، ثمّ أمسك بكتفه، وعيناه مصوّبتان إلى عينيه.

التقط الصغير ارتجافةً خفيّةً عند زاويتي فمه، لم يتمكّن من إدراك معناها، لكنها أربكته قليلاً.

وفجأةً شدّه إليه. لقد احتضنه. كانت حركةً مباغتةً لم يتوقّعها. هزّت كيانه، وجعلت الدم يتدفّق داخل عروقه مسرعاً، وعنيفاً، وغزيراً، إلى درجة أنّه سمع خريره داخلها.

باستثناء أمّه وزينب لم يفعلها أحدٌ معه منذ سنوات، الرجال خصوصاً، وأوّلهم أبوه. وقد رسخ في ذهنه أنّ الرجال لا يعانقون. أصبحت لديه قناعةٌ أنّ العناق سلوكٌ خاصٌ بالنساء وحدهن، وقد يبدر من الرجال تجاه الأطفال، ولكن إلى عمرٍ معين، أربع سنوات، أو خمس، ثم يُترَكون بعدئذٍ. أقصى ما يمكن أن يحصلوا عليه بعد هذا العمر هو مصافحةٌ، أو تربيتةٌ خفيفةٌ على الكتف، أو لمسةٌ على الرأس.

ضمّه الشرطي إليه، وشعر بيديه تضغطان على جناحيه من الخلف. كان جسد الشرطي ساخناً، وقد انتقلت هذه الحرارة إليه، فأخذ يتعرّق.

ثم وجد نفسه مستغرقاً في البكاء، بينما الشرطي يشدّه إليه أكثر فأكثر.

كان يختنق تقريباً. لكنّه التقط أنفاسه في النهاية، وتحرّك مبتعداً عن الشرطي قليلاً.

- عمّي أبو محارب.. لقد أفسد أبو سعيد جناحي بمقصّه.. لم أتمكّن من التحكّم بهما جيداً، فاصطدمت بعمود الكهرباء.. لا أريد أن يعبث لي بهما بعد الآن.

قالها، وهو يلهث، بينما ما تزال يد الشرطي على كتفه.

سأله:

- طرت بهما؟

- نعم.. ليس طويلاً، ولا بعيداً.. لكنني طرت بهما.

وجومٌ، وعبوسٌ، واحمرار وجه، وعينان تنغلقان وتنفتحان، وصدرٌ يعلو وينخفض.. بدا الشرطي كأنه محشورٌ في شقٍّ ضيّقٍ بين جدارين، والجداران يضغطان عليه. كان في صراعٍ شرسٍ مع الزمن ليخلّص نفسه قبل أن يسحقاه.

حكّ رأسه مرّات، وتلفّظ مرّات، وحدّق في السماء التي كانت قد أظلمت مرّات، كما أنّ قبضته التي كان يمسك بها كتف الصغير ارتخت.

لم يبدر من الصغير أيّ ردّ فعل. انتظر إلى أن أخذ الشرطي يستردّ وعيه، وانتبه إلى زاويتي فمه ترتجفان الارتجافة الخفيّة نفسها التي لاحظها قبل قليل، ثم خرجت الكلمات من فمه متدفّقةً متلاحقةً، تحاول الوصول إلى أذنيه في أسرع وقت، كأنّها تريد أن تسبقه قبل أن يغيّر رأيه، ويبتلعها ثانية.

- لقد مرّت الأيام مسرعةً أيّها الصغير. لم تعد طفلاً. أنت الآن شابٌ حقّاً. يبدو أنّني لم أحسبها جيّداً. كنت أظنّ أنّ أمامنا سنتين أخريين، أو حتى ثلاث سنوات.. ولكن.. لا بأس أيّها الصغير.. لا بأس!

صمت الشرطي. رآه الصغير يحرّك شفتيه المغلقتين كأنّه يلوك شيئاً داخل فمه. هنالك ما يرغب في قوله، أو فعله، لكنّه قلقٌ ومتردّد.

ثم رآه يفغر فمه، ومن بين الشفتين يخرج الزفير كعاصفةٍ صغيرة. لعلّه كان يريد أن يلفظ تلك اللقمة القاسية العالقة داخل الفم بعد أن عجز عن مضغها.

- أيّها الصغير.. هل تريد أن ترى شيئاً؟

ولم يمهله الشرطي ليردّ.

انحنى ممسكاً بالطرف الأيمن من سرواله من الأسفل، ثم رفعه مشمّراً عن ساقه إلى ما فوق الركبة.

ذهل الصغير، وهو يرى ذلك الانتفاخ القبيح في ساق الشرطي. كانت ركبته قد تورّمت، وأصبحت في حجم البطيخة تقريباً، بينما العظام من فوقها ومن تحتها نحيلةٌ كأعوادٍ من حطبٍ جافّ. استغرب الصغير كيف كان بإمكانها أن تتحمّل كلّ هذا الثقل بدون أن تتقصّف!

- ما هذا عمّي أبو محارب؟

- الروماتيزم أيّها الصغير.

- هل تؤلمك؟

- طبعاً.. لكن هل تعلم السبب؟

- لا.

- أنت الآن شابٌ بما فيه الكفاية، وستفهم ما سأخبرك به الآن.. الأطباء أغبياء، لا يعرفون شيئاً. يتحدّثون عن أسبابٍ غريبةٍ لا علاقة لها بالحقيقة.. أنا لا أثق بهم.. بل أحقد عليهم.. أغبياء.. قتلوا خالتك أمّ محارب بغبائهم، ولولا رحمة الله لقتلوك أنت أيضاً.

وتابع:

- هذه هي حال ركبتي. انظر إليهما جيداً.. إنّهما قبيحتان.. لكن ليس هذا هو المهم، وإن كان جزءاً من الحكاية.. المهمّ شيءٌ آخر مختلف.. سأريك إيّاه الآن.

ثم ترك البنطال ينسدل على الركبة، ورفع يده إلى الأعلى حيث أزرار قميصه، وبدأ يفكّها واحداً تلو الآخر. خلع القميص، معرّياً صدره أمام الطفل، ثم استدار، فأعطاه ظهره.

- انظر.. ماذا ترى أيّها الصغير؟

كان ذهول الصغير هذه المرّة مضاعفاً. صعقه منظر الندبتين الطويلتين على ظهره تبدأ كلٌّ منهما من الأعلى قريباً من الكتف، ثم تهبط إلى الأسفل باتّجاه وسط الظهر.

كان واضحاً أنّ ثمّة شيئاً ما قد استؤصل من ظهره، وأنّ الاستئصال تمّ على عجل، وبطريقةٍ غير متقنة، فقد خلّف في ظهر الشرطي زوائد لحميةً متفاوتة الأحجام كانت تتدلّى منه كأنّها ديدان ما تزال حيّة.

- هل هذا روماتيزم أيضاً عمّي أبو محارب؟

سأل الصغير، وهو يقاوم شعوراً مباغتاً بالغثيان.

- لا.. الروماتيزم لا يصيب الظهر.. إنّهما جناحان أيّها الصغير.. كجناحيك.. أو..

تقطّعت الحروف الخارجة من فمه، ثم اختفى صوته. لكنه ابتلع ريقه، وأخذ نفساً عميقاً، وتابع:

- ... حسناً، سأكون دقيقاً كي تفهمني.. ليسا جناحين بالضبط.. هما بقايا جناحين.. بقايا لا أكثر.. كما ترى.

وأضاف:

- اسمع أيها الصغير. الكائنات المجنحة تُخلَق عادةً بسيقانٍ ضعيفةٍ ناحلة؛ لأنّها لا تحتاج إليها. هي مخلوقةٌ للطيران لا للمشي، وعندما تضطر إلى المشي فلمسافاتٍ قصيرةٍ جداً. وإذا تجاوزت هذا الحد فهذا ما يحدث لها. كما ترى. روماتيزم لعين ينخر الركبتين، فتتورمان، وتتحولان إلى دفلعين. بالكاد تسمحان لك بالوصول إلى المرحاض لقضاء الحاجة.

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025

(4)

هل تصدق أيها الصغير؟ أظنّ أنها حدثت قبل سبعين عاماً، لكنني أشعر بها كأنها كانت أمس فقط. مزّاتٍ كثيرة أستيقظ من نومي فزعاً، وأمدّ يدي إلى ظهري أتلمس هذه الزوائد التي تراها لأتأكّد من أنها لا تنزف دماً. أتلمسها، وأشعر بأصابعي وقد لطّخها حقاً سائلٌ لزجٌ دافئ. وعندما أرفع أصابعي أمام عينيّ أجدها جافّةً لم يعلق بها شيء! دمٌ شفّافٌ لا يُرى بالعين المجرّدة، ولا تُحِسّ اليدُ بغير حرارته الكاوية. دمٌ ساخنٌ، ويلسع، ولا يكفّ منذ ذلك الوقت عن النزيف ليل نهار منذ سبعين عاماً. سأسمح لك أن تتلمس قطع اللّحم هذه المتدلّية على ظهري لتتأكّد. ستعرف ما أعنيه، سترى كم هي ساخنة! وستشعر بالدم الجافّ الذي يتقاطر منها.

كانوا ثلاثة رجال، أمسك بي اثنان منهم، وثبّتا جسدي إلى الأرض، في حين تولّى الثالث الجزء الآخر من العملية. كانوا ملثّمين، فلم أتعرّف إلى أيّ منهم. لا أدري إلى الآن لم فعلوا ذلك بي!

كنت ابن سبع سنوات، أو أصغر قليلاً، عندما هاجموني. حملني أحدهم بين ذراعيه، وقد كمّم لي فمي بكفّيه الضخمين، وانطلقوا بي خلف جبلٍ صغيرٍ بالقرب من المكان الذي كنّا نخيّم فيه. وهناك فعلوا فعلتهم.

أتعرف كيف استأصلوهما؟

بالمقصّ.

ليس كمقصّ أبو سعيد الذي تشكو منه. أنت محظوظٌ بمقصّ أبو سعيد أيها الصغير. ما أتحدّث عنه مختلفٌ تماماً. مقصٌّ عملاقٌ، وصدئٌ، ومثلومٌ، يسقونه لدينا في البادية (الزقّ)، ويستعملونه عادةً لجزّ الصوف من الأغنام.

بإمكاني الآن أن أصف لك أدقّ تفاصيل الحدث، لكنّ ذلك سيطول، فدعني إذاً أتوقّف عند الجزء الأكثر فظاعةً. المشهد كلّه فظيعٌ ومرعبٌ طبعاً، غير أنّ جزءاً معيناً يستحقّ أن أحدّثك عنه بتفصيلٍ أكبر. أتدري ما هو؟

أعلم أنّك تفكّر في اللحظة التي تحزّك فيها فكّا المقصّ، وأطبقا على الجناحين. معك حقّ، لكنّني لا أعني هذه اللحظة وحدها، مع أنّه كان ألماً لا يطاق بالفعل، خاصّةً أنّ المقصّ كان مثلوماً أيها الصغير. أتتخيّل ذلك؟ لا أدري لِمَ لم يشحذوه قبل أن يمسكوا بي! أو على الأقلّ لِمَ لم يستعملوا خنجراً، أو سكّيناً، أو ساطوراً! كان سيمرّ باللحم بسلاسةٍ وصمتٍ كما يُقطّع الجزّار الذبيحة. أحسد كلّ ذبيحةٍ حظيت بسكّينٍ مسنونةٍ مرّت على رقبتها، واحتزّتها بضربةٍ واحدةٍ سريعة. لمعة ألم فقط، وتنطفئ، ومعها ينطفئ كلّ شيء. راحةٌ وسكينةٌ وسلام. السرعة هنا مهمّة جدّاً. نوعٌ من الرحمة.

أمّا هذا المقصّ فكان يقرض اللّحم ببطء. ببطء. يمضغه على مهل. يلوكه مراراً، كأنّ إنجاز العمل باستئصال الجناحين لم يكن غايتهم الحقيقيّة، بل المتعة التي يهبها لهم ذلك؛ ولهذا السبب كانوا يتعمّدون إطالة الوقت، وكانوا يضحكون، وأحياناً يتأوّهون.

وكان الحديد يصطدم بالعظم، فيتوقّف قليلاً. ثمّ أشعر بالضغط المضاعف عليه إلى أن يتحطّم. كنت أسمع صوت عظامي، أيها الصغير، وهي تتفتّت بين فكّي ذلك المقصّ اللّعين. تعرف أعواد الحطب الجافّ، وأنت تقصفها بيديك قبل أن تلقي بها إلى النار؟ صوتٌ ناعمٌ في الحقيقة لمن يسمعه من الخارج، لكنّك عندما تسمعه داخل لحمك فإنّ دويّه أشدّ وأعلى وأكثر وحشيةً من دويّ القنابل. أعرف كيف تكون القنابل، فقد تفجّر بعضها بالقرب منّي في الثمانية والأربعين، وأؤكّد لك أنّ صوتها مرعب، لكنّه ليس في حجم ذلك الصوت الذي يطلقه العظم، وهو يتحطّم، وإن كان عظماً طرياً لطفلٍ في السابعة من عمره.

أرأيت؟

لكنّني لم أكن أعني ذلك وحده. لم يكن هو الجزء الأشدّ فظاعةً وقسوةً، والذي أتذكّره على الدوام، وأعيشه

كأنه حدث للتو، بتفاصيله الدقيقة كلّها.

سأخبرك.

عندما مدّدوني على الأرض، حشا أحدهم فمي بقطعة قماش التقطها من الأرض. حاولت أن ألفظها، لكنه دفعها بعنف إلى الداخل، إلى درجة أنه حطّم أحد أسناني الأماميّة. فعلوا ذلك كي لا أتمكّن من الصراخ.

وهنا تكمن المأساة التي تطاردني إلى اليوم.

لو أنهم تركوا لي هذا الحقّ فقط. أن أصرخ. أن أطلق طاقة الألم الرهيب التي تجمّعت في أحشائي. لقد شعرتُ بجوفي مضغوطاً من الداخل. دوّامةٌ من نار تتحرّك هنا، تسوط كلّ خليّةٍ من خلايا جسدي.

لم أكن بحاجةٍ -وهم يقرضون لحمي نتفاً- إلى أكثر من صرخة. صرخة فقط.

الألم بصمتٍ هو أسوأ أنواع الألم أيّها الصغير. وأقساها.. وأشدّها شراسةً وتوحشاً.. أبشع ما فيه أنّ له جذوراً تنغرس عميقاً وبعيداً، بحيث يستحيل التخلّص منه بعدئذٍ.

لم يكتفوا باقتلاع جناحيّ بمقصّ صديٍّ مثلوم، بل استكثروا عليّ أيضاً أن يكون لألمي صوتٌ يتنفّس به. لم يمنحوني الفرصة كي أتألّم بحريّة، وإلى النهاية. تركوا لي صرختي مخنوقةً، ومقيّدةً هنا تبحث عن طريقةٍ للخروج، ولكن بدون جدوى. لم تعد الطرق أمامها سالكةً، حتّى بعد أن أخرجوا من فمي قطعة القماش القذرة تلك.

هكذا، منذ سبعين عاماً، وأنا أشعر بها تفترس أحشائي. والأغرب أنّها تكبر أيّها الصغير. تلك الصرخة اللّعينة تكبر يوماً بعد يوم، وتزداد شراسةً وتوحشاً، وتتصلّب أيضاً. هي اليوم في ثقل الصوّان وكثافته، ولها أسنانٌ مدبّبةٌ كالمسامير تنهشني طوال الوقت.

هل تعلم أنّني بسببها أصبحت أصمّ تقريباً؟ ليست المشكلة في أذنيّ، بل في هذا الضجيج في الداخل. دويّ قنابل لا يسمعه سواي. معظم ما يُقال لي أقرؤه من حركة الشفاه؛ أمّا الأصوات نفسها، فيبتلع معظمَها ضجيجُ أحشائي الأبديّ الذي لا يتوقّف.

عندما حزّروا فمي من قطعة القماش كانت الصرخة قد ضلّت طريقها داخل جسدي إلى الأبد. كان الوقت قد تأخّر، فانغلقت عليها روحي، ولم يعد بوسعها الخروج. ما خرج كان أنيناً رخواً واهناً لا يكاد يسمعه أحد، يشبه كثيراً عواءك عندما كنت على الشجرة هناك. لن تتذكّره طبعاً؛ لأنّك كنت ما تزال رضيعاً. كان عواءً ممطوطاً غامضاً يصعب معرفة ما يقود إليه، أو يكشف عنه بالضبط.. ألم، حزن، رعب، ذهول، فراغ.. أشياء من هذا القبيل.. ما ميّز عوائي عن عوائك أنه كان ينضح دماً.

المهمّ أنّ مشكلتي اليوم أيّها الصغير ليست مع ذكرى الألم التي تركها لي مقصّ صديٍّ أطبق على جناحيّ واجتثّهما، بل مع صرختٍ لم يُقيّض لها أن تأخذ فرصتها، التي هي حقٌّ لها، في أن تدوّي كما يجب، فارتدّت إلى الداخل، وعلقت هناك. شبكةٌ جذورها معقّدة تخترق مجاري الدم والهواء. تنفث السمّ طيلة الوقت. تخيّل كم من السمّ جرّعتني هذه الصرخة خلال سنوات عمري!

دَعْك من بشاعة هذا المنظر في ظهري. أصابك المنظر بالغثيان، أليس كذلك؟ ودَعْك من ركبتيّ اللّتين أرهقهما المشي بعد أن اقتلعوا لي جناحيّ، فتورّمتا، وتحوّلتا إلى دمّلتين قبيحتين كما رأيت. ودَعْك من الكوابيس، ومن الفراغ، ومن الوحدة، والشيخوخة، والعجز.. دَعْك من كلّ هذا، فهو لا يعادل شيئاً أمام تلك الصرخة، وما أحدثته من خرابٍ في حياتي.

تركوني مع صرختي الحبيسة بأسنانها المدبّبة، وشبكة جذورها الساقة، ومع عوائي الرخو المنساب من فمي كخيطٍ رثّ، وغادروا.

عثر أبي علي بعد ساعات، وكنت ما أزال حياً.

كان جسدي يغطيه الدم النافر من الجروح، والريش المتناثر من جناحي المقطوعين، وفُتات اللّحم، وشظايا العظام، والزبَد، واللعاب، والقيء المتدفّق من فمي، وخيوط المخاط من أنفي، والبول والغائط بين فخذيّ.. والدموع من عينيّ.

الدموع أيّها الصغير.. لو تدري كم بكيت يومها!

انتشلني أبي من وسط هذه الفوضى، وحملني إلى خيمتنا. وهناك أمضى الوقت كلّه مع أمّي ينتظران أن أموت. لم يكن لديهما أدنى شك في أنّني لن أكمل مشواري الذي كانا يتوقّعانه لي في هذه الحياة.

كانا محقّين في توقّعاتهما، فهما حكيمان، ويعرفان ماذا يعني جرحٌ بهذا الحجم، والعمق، والقسوة.

ومع ذلك فعلتها، ونجوت.

ولا تسألني: كيف؟

بعد بضعة أشهر كنت قد استعدت شيئاً من عافيتي، فحملاني، وغادرا الصحراء، هاربين بي إلى هذا المكان.

حصرياً على روايات وكتب عربية وعالمية https://t.me/riwaya

عندما فرغ الشرطي في ذلك اليوم من الحديث عن الصرخة العالقة في جوفه بدا متعباً ومستنزفاً. ومع ذلك فقد تابع الكلام، لكنّ هذا الجزء الأخير من حديثه كان نوعاً من الهذيان الذي لا يحمل أيّ معنى. لم يفهم الصغير شيئاً. مجرّد أصواتٍ يسمعها، خشنةً أحياناً، وحادّةً أحياناً أخرى، وليّنةً، وقاسيةً، وخارّةً، وباهتة.. خليطٌ غريبٌ من أصواتٍ لبشرٍ وحيواناتٍ، ومياهٍ، ورياحٍ، وعرباتٍ، ومقصّاتٍ، وسكاكين، وأبوابٍ تنفتح وتنغلق.. وكلّها على خلفيّةٍ من أغانٍ عراقيّةٍ حزينةٍ.

واستغرب الصغير عندما لاحظ أنّ الشرطي لم يكن يحرّك شفتيه حينها، فافترض أنّها الصرخة في جوفه، وقد تحوّلت إلى كائنٍ حيّ، وحشٍ على الأغلب، وهو الذي يطلق تلك الأصوات!

وكما أرغبته صورة الشبح التي خطرت في ذهنه قبل قليل، وهو يرى الشرطي يحرّك يديه صعوداً وهبوطاً في أثناء استماعه إلى الأغنية في الراديو، فقد أحسّ بالرعب أيضاً عندما مثلت أمام عينيه صورة الوحش الذي يحتلّ رجُلاً، ويصدر أصواتاً، وقد يقفز من فمه في أيّ لحظة. ثمّ تفاقم رعبه عندما أخذ جسد الشرطي يختلج على نحوٍ ظنّ معه أنّه سيتفكّك حالاً. كان على يقينٍ تقريباً من أنّه سيرى أعضاء جسده مبعثرةً أمامه على الأرض كقطعٍ من الخردة. وأخذ يتساءل عمّا يمكن أن يفعله في هذه الحالة!

غير أنّ الشرطي تماسك أخيراً. شدّ قامته، ثمّ خبط بعكّازه على الأرض، وقال محرّكاً شفتيه هذه المرّة، وفي نبرةٍ لمس الصغير فيها قدراً كبيراً من الثقة، إلى جانب شيءٍ من الإرهاق:

- لتحافظ عليهما أيّها الصغير. دورك الآن. بالنسبة لي فقد فعلتُ ما بوسعي. قد لا تجدني إلى جانبك في المرّات المقبلة، فأنا رجلٌ عجوزٌ ووحيدٌ، ومريض. فقفذ تقريباً. لقد رأيت بنفسك.

ثمّ أضاف:

- تصرّف أيّها الصغير.. وبالنسبة إليّ فلا تقلق عليّ. عمّتك أمّ محارب نائمةٌ في قبرها، والأولاد سافروا. ومع ذلك بوسعي أن أتدبّر أمري. لا تقلق. المهمّ أنت. جناحاك. حاول ألّا تفرّط بهما أيّها الصغير.

قالها وهو يستدير مغادراً.

- والآن اسمح لي.. يجب أن أذهب إلى المرحاض.

لمح الصغير للمرّة الأخيرة ظهره العاري. رأى تلك الزوائد عليه، وهي تتأرجح. تمعّن فيها، فاتّضح له أنّه كان مخطئاً في انطباعه الأوّل عنها، فهي لم تكن تشبه الديدان. بدت أقرب ما تكون إلى ألسنةٍ مقطوعة، وخيّل إليه أنّها كانت تقطر دماً بالفعل كما كان يدّعي قبل قليل. خيّل إليه كذلك أنّه رأى كلماتٍ كالفقاعات على أطرافها، فتساءل عمّا إذا كان الشرطي، لسببٍ ما، لا يريد لهذه الكلمات أن تفلت منها، فاستعجل بالمغادرة على هذا النحو.

(6)

بغض النظر عما إذا كانت ثلاثين عاماً، أو أربعين، أو خمسين، أو أقل، أو أكثر، فقد عاد الصغير أخيراً.

قال الشرطي:

- تعجبني أيها الصغير. استأذنتك لدقائق للتبوّل، وعندما عدتُ لم أجدك.. كم ضحكتُ يومها! ولكن، أتريد الحق؟ لم أفاجأ، بل أزعم أنني كنت واثقاً من أنني لن أجدك. أكثر من ذلك، لقد تركتك متعمداً. كان بوسع مثانتي الانتظار؛ إذ لم تكن قد طفحت بعد.. لا تسخر مني لأنني أستخدم هذه الألفاظ.. البول، والمثانة.. لقد سبق أن حذّرت أباك من أن يتجاوز حدوده معي، وأحذّرك أنت أيضاً. المسألة أنه كان عليّ أن أمنحك الفرصة لاتخاذ قرارك بحرّية، وبدون أن يضغط وجودي عليك بشأنها. ولحسن الحظ أنك فهمتها.. لم تكن غبياً كأبيك. بفضلك تعلّمتُ أنّ الغباء لا يورّث بالضرورة.

وسمع الصغير صفائح الحديد تخبط بعضها. ضحكةٌ لم يعد يجفل منها، أو يستغربها، بل بدأ يحبّها، وبارتفاع نسبة الضجيج الذي يرافقها يزداد شعوره بالراحة والاسترخاء؛ لأنه يبدّد الشكوك التي ظلّت تراوده حول ما إذا كان الشرطي على قيد الحياة فعلاً، وليس مجرّد جثةٍ نَجَتْ من التفسخ بمعجزةٍ ما، هذا إلى جانب الدليل الأقوى والأهمّ على حياته، والمتمثّل بحزم الضوء المنبعثة من عينيه، بدرجات سطوعها المختلفة، وألوانها المتغيّرة أيضاً، الأمر الذي انتبه إليه للتو.

- ألم أكن مخطئاً حينها؟

سأل الصغير الشرطي، ثمّ أضاف:

- أسألك لأنني أشعر الآن أنها كانت مغامرةً طائشة. لا أجد مبرّراً لهروبي في ذلك اليوم. لم أكن مضطرّاً لفعل ذلك.

- كنتَ في عمرٍ يسمح لك بارتكاب بعض الأخطاء. لم يكن مطلوباً منك أن تفعل الأشياء الصائبة فقط، هذا إذا كان مطلوباً من أيّ شخص -مهما كان عمره- ألّا يفعل سوى الصواب.. ومع ذلك فأنت لم تخطئ. لا أدري ما الذي جرى لك بعد رحيلك، ولكن فكّر في ما كان سيحدث لو لم تفعلها.

وطاف الصغير بعينيه متأمّلاً الغرفة والفوضى التي كانت عليها، ثمّ انتقل بهما إلى الخارج من خلال الباب المفتوح.

الغرفة بجدرانها المتداعية، والدهان القديم المقشّر، والأرضيّة التي تقلّع بلاطها، وبقايا الكتب الممزّقة على الرفوف وفي الأرض، وعلب السردين الفارغة الصدئة، وقطع الملابس الرثّة، وأعشاش العناكب، وأرتال النمل، وبراز الذباب الجافّ.. فضلاً عن صرير عظامه المجرّدة من اللّحم، والرائحة النتنة التي لا يخفّف من وطأتها تجدّد الهواء داخل الغرفة بفعل الهبات المندفعة بين الحين والآخر.

أما في الخارج، فأكوام القمامة، وجذوع الأشجار اليابسة المنخورة، والأعشاب الساقة تحتها، وفضلات القطط والكلاب والطيور، وأكياس البلاستيك التي قذف بها الهواء هنا، والتي حالت ألوانها مع طول تعرّضها للشمس.

انتبه الشرطي إلى الصغير، وهو يحدّق في ذلك كلّه، فقال:

- لا أيها الصغير. لا أعني ذلك. لا تدع هذه التفاصيل الصغيرة السخيفة تخدعك. إنّها ليست شيئاً. إذا كنت تريد أن تعرف الحقيقة خالصةً وعاريةً وناطقةً، فعليك أن تقوم بجولةٍ في الخارج، بعيداً عن هنا. ما تراه هنا في هذا البيت رحمةٌ ولطفٌ أيها الصغير. هناك يأكلون بعضهم. كما أقول لك. يأكلون بعضهم حرفياً.

كانت كثافة الرائحة التي أطلقها جسده، مترافقةً مع آخر ثلاث كلمات، مريعةً حقاً. رائحة موت قديم

شديدة اللزوجة. تلقى الصغير الدفعة الأولى منها، فاختنق، ثمّ اضطرّ إلى أن يسدّ أنفه وفمه بباطن كفّه.

- نعم.. هذا هو المصير الذي أنقذت نفسك منه.. أؤكّد لك.. لو بقيت هنا، ونجوت من أنياب أحدهم، فلم تذؤبك عصارة معدته، لكان الروماتيزم ينهش ركبتيك الآن، ولكان الوصول إلى الحمّام رحلةً شاقّةً أهوّن عليك أن تتفوّط في ثيابك من أن تتحمّل الآلام التي تبتليك بها.. أنت محظوظ أيّها الصغير!

ولمح الصغير ظلّ ابتسامةٍ على شفتي الشرطيّ، وهو يضيف:

- أنا متأكّدٌ من أنّ ركبتيك بخير، وهذا يعني أنّ جناحيك بخير أيضاً. ها أنت تقف أمامي منتصباً وثابتاً. لا تشكو من الروماتيزم. ركبتان قويّتان صلبتان. صرت تعرف ماذا يعني أن يفقد شخصٌ جناحيه، فيضطرّ إلى الهبوط باتّجاه الأرض التي لم يخلق ليكون جزءاً منها! يضطرّ إلى الاعتماد كلّياً على ركبتيه الهشّتين، فيضغط عليهما بأكثر ممّا تحتملان. والأكيد أنّهما ستتحوّلان إلى دقلتين. لقد رأيت ركبتيّ من قبل. كان ذلك قبل سنواتٍ طويلة. أربعون سنةً أم خمسون؟ هل تذكر؟

- ليس بالضبط، لكنّه زمنٌ بعيد.

- أجل، يبدو بعيداً جدّاً. المهمّ أنّ ركبتيّ الآن في حالٍ أسوأ. لن أسمح لك بإلقاء نظرةٍ عليهما. لا أريد أن أؤذيك بمنظرهما. درجةٌ من القبح لن تتمكّن من احتمالها.

ومن خلف كفّه التي كانت تغطّي فمه وأنفه أجاب الصغير:

- أتمنّى لك السلامة يا أبو محارب، ولكن...

قاطعته ذبابةٌ حطّت على وجهه، فهشّها، ثمّ تابع:

- .. بالنسبة إلى الجناحين فهما.. كيف أقولها؟ نعم.. ليسا بخير مع الأسف.

- لم يقتلعهما لك أحدٌ بمقصٍّ مثلومٍ يُستخدَم لجزّ الصوف من الأغنام.

- لا.

- هما بخيرٍ إذاً.

نطقها الشرطيّ جازماً، في حين نكّس الصغير رأسه. أراد أن يقول شيئاً، لكنّ الكلمات ظلّت تعانده. تندفع قويّةً باتّجاه شفتيه، ثمّ تصطدم في اللحظة الأخيرة بحاجزٍ شفّافٍ غير مرئيّ يقف أمامها فجأةً، ويحول بينها وبين الخروج، فتتراجع إلى الخلف منكسرةً، بلا أيّ أثرٍ ملحوظ.

تكرّرت المحاولة. استولت على الصغير رغبةٌ قويّةٌ مفاجئةٌ في أن يقولها مهما كان الثمن.

عندما جاء إلى هذا المكان لم يكن ضمن مخطّطاته أن يخبر الشرطيّ بشيء؛ لأنّه أصلاً لم يتوقّع أن يجده حيّاً بعد هذه السنوات كلّها. كان يريد أن يلقي نظرةً سريعةً وعابرةً على المكان، ثمّ يغادر. فقط. الفضول. لقد كان صادقاً عندما أخبر الشرطيّ قبل قليل بأنّه هنا من باب الفضول لا أكثر.

غير أنّ الأمر تغيّر الآن.. هنالك ما يجب قوله.. يشعر أنّ من حقّ هذا الشرطيّ أن يعرف.. وجوده حيّاً –على غير ما كان يتوقّع– غيّر الموقف كلّياً.

كرّر المحاولة.

وفي نهاية المطاف استطاع أن يتغلّب على تردّده، وتكلّم.

(7)

تكلّم.. غير أنّ تقديراته لأهمّية وحجم ما كان يريد قوله لم تكن دقيقةً. اكتشف ذلك ما إن انتهى من الجملة الأولى:

- أبو محارب.. أنا حزينٌ لأجل ذلك، لكنّ هذا ما حدث.. أشعر أنّ من حقّك عليّ أن تعرفه.. لم يعد لديّ جناحان. اختفيا. كما لو أنّ جسدي امتصّهما.

قالها في كثيرٍ من الحماس والاندفاع، مختاراً لها الطريق الأشدّ استقامةً واختصاراً بين قلبه وفمه. طريقٌ مباشرٌ وسريعٌ، وواضحٌ، وممهّدٌ، سلكته الكلمات باتّجاه فمه، ثمّ لفظها بهذا الصوت الواثق القويّ.

وعندما همّ بأن يكمل بوغت بفراغٍ هائلٍ ينفتح أمامه، ويلتهم كلّ ما كان يظنّه متاحاً وممكناً. الكلمات التي كانت مثقلةً بالمعاني قبل قليلٍ لم يعد لها وزنٌ ولا قيمة. رآها تعوم داخل ذلك الفراغ باهتةً مترنّحةً، لا تعرف إلى أين يجب أن تتّجه، وليس فيها ما يجذب، أو يثير.

- لم يعد لديّ جناحان. اختفيا. كما لو أنّ جسدي امتصّهما.

كرّرها.

جملة واحدة، قصيرة، ومختصرة.. لكنّها مكتملة أيضاً.. هي كلّ حكايته، وما عداها، كما شعر في تلك اللحظة، سيكون استطراداً فارغاً ومملّاً. محضَ ثرثرة. شرحاً كئيباً لحقيقةٍ واضحةٍ ومحسومةٍ لا تحتمل الشرح.

ومع ذلك فقد حاول، معتقداً أنّها حبسةٌ طارئةٌ، وأنّه سيتغلّب عليها في نهاية المطاف، وقد يتمكّن من أن يجد ما يضيفه إليها، فيحييها، ويعطيها قيمةً ما.

بمشقّةٍ كشف عن حجمها لهاثه وصوته المبحوح، تمكّن من التقاط بعض الكلمات.

- ظهري الآن طبيعي يا أبو محارب. مسطّح وأملس تماماً، مثل أيّ شخصٍ آخر لم يمتلك جناحين في يومٍ من الأيّام. أملس، وناعم، ببشرة صافية. ما من ندوب. ما من ديدان. ما من ألسنةٍ مقطوعة. ما من دمٍ جافّ.

لم تقنعه هذه الإضافة، بل لقد شك في أنّه قالها، وأنّ الشرطيّ سمعها؛ ولهذا السبب قرّر أن يكتفي بذلك. قرّر أن يتوقّف عند هذا الحدّ، ويصمت بانتظار أن يعاوده الحماس ثانيةً.

داخل الفراغ الذي انفتح في رأسه رأى سنواتٍ طويلةً من المدن، والشوارع، والبيوت، والصحارى، والبحار، والطائرات، والوجوه، والأصوات، والروائح.. رآها على شكل جبالٍ من القمامة، ورأى نفسه قزماً بحجم خنفساء ينقّب فيها، باحثاً عمّا يمكن أن يهزّه هزّاً، ويجعله يشهق، ثمّ يقفز كالملسوع، وهو يصرخ بأعلى صوته:

- وجدتُها.. وجدتُها.. هذه هي!

لا شيء على الإطلاق. ذكرياتٌ قمامة. ذكرياتٌ فضلات. ذكرياتٌ رمم. حكاياتٌ رديئةٌ، ومكرورةٌ، ومملّةٌ لا تستحقّ أن يوليها أيّ اهتمام.

وتساءل عمّا يبحث عنه هذا القزم بالضبط. هل كان يبحث عن جناحيه؟

بغياب الجناحين لن يكون هنالك ما يستحقّ أن يرويه لهذا الشرطيّ.

ما الذي يعني الشرطيّ في حياة رجلٍ مثله لم يعد له جناحان؟

رجلٌ كملايين البشر الذين يعيشون على هذه الأرض، ما الذي سيهمّ الشرطيّ فيه؟

ما الذي يعني رجلاً استأصلوا له جناحيه بمقصٍّ صدئٍ في شخصٍ انتهى به الحال هنا، مشدوداً إلى الأرض

لا يغادرها؟ ما الذي يعنيه في شخصٍ لم يفعل شيئاً سوى أنه يمتلك قدمين أمضى حياته يتجوّل بهما من شارعٍ إلى شارع، ومن بيتٍ إلى بيت، ومن مدينةٍ إلى مدينة، ومن قارّةٍ إلى قارّة؟!

سافر وعمل، وتزوّج، وطلّق، وامتلك مالاً، وأفلس، ثمّ امتلك مالاً، وأفلس، ثمّ ركب البحر، وأصبح لاجئاً، ثمّ تزوّج، ثمّ أنجب ابنةً هي الآن في الثانية عشرة من عمرها، ثمّ تملّكه فضولٌ ساذجٌ وأحمق تجاه طفولته، فعاد.. وسيغادر..؟

أين جناحاهُ من هذا كلّه؟! الجناحان اللّذان تدخّل هذا العجوز ثلاث مرّات على الأقلّ لإنقاذهما؟!

- يا للتفاهة!

ردّد الصغير بينه وبين نفسه، وقد عزم على أن يكتفي بما قاله قبل قليل، ثمّ يترك الأمر للشرطي. دوره الآن إن أحبّ أن يسأل عن تفصيلٍ معيّن، وسيرى حينها إن كان لديه جوابٌ ما.

نظر إليه مستطلعاً، منتظراً أن يعلّق بشيء، فوجد أنّ عينيه قد انطفأتا، وابتلعهما سوادٌ حالكٌ عميق. أظلم وجه الشرطي، وتصلّبت ملامحه، فبدا كأنّه يرتدي قناعاً من الطين اليابس صدّعته الشمس بلهيبها الحارق، وشكّلت على سطحه شبكةً من شروخٍ عميقةٍ واسعةٍ، وأخرى دقيقةٍ لا تكاد تُرى.

- لم أكن أعلم أنّ الأجنحة تختفي من تلقاء نفسها.. كنت أظنّ أنها تُستأصَل فقط.. تُقتلَع بالسكاكين والمقصّات والسواطير فقط، أو بمبضع طبيبٍ غبيّ في أحسن الأحوال.

تمتم الشرطي من خلف قناعه هامساً. صوت خفيض وبعيد إلى درجة أنّ الصغير لم يكن واثقاً مما إذا كان قد سمع شيئاً حقّاً، أو أنه كان يتوهّم وحسب.

روايات وكتب حصرية وعالمية https://t.me/riwayat2025

الأجنحة تختفي يا أبو محارب. هذا ما حدث معي.

لقد استعملتهما.. ولكن لمرّاتٍ قليلة.

كنت أخرج إلى أماكن معزولةٍ كلّما سنحت لي الفرصة. أقف في العراء قبل أن أخلع قميصي. أمطّ رقبتي إلى الأعلى، ثمّ أديرها يميناً ويساراً، وإلى الأمام، وإلى الخلف. أتلفّت حولي في كلّ الاتّجاهات. أمسح بنظراتي المكان حجراً حجراً، وشجرةً شجرةً، وخيالاً خيالاً. أرصد كلّ ما يحيط بي، بحثاً عن عينٍ قد تقع على ظلّي على الأرض وأنا أحلّق عالياً، أو أذنٍ يمكن أن يستوقفها حفيف جناحيّ لحظة إقلاعي بهما، أو أنفٍ تقتحمه رائحة العرق التي تفوح منهما وأنا أفردهما...

كان الخوف يتملّكني دائماً...

الخوف من مقصّاتِ الرعاة التي حدّثني عنها...

الخوف من بنادقِ الصيّادين التي حدّثني عنها أبي...

الخوف من القطط الجائعة التي حدّثتني عنها أمّي...

ومن أعمدةِ الكهرباء التي يمكن أن أصطدم بها...

والصحراءِ الواسعة التي قد أضلّ فيها طريقي...

والغثيان...

والجوع...

والعطش...

والسقوط...

وتحطّم العظام...

وعجين اللّحم والدم...

يصيبني ذلك كلّه بالدوار، وترتخي ساقاي، وأفكّر جاداً بالعودة، لكنّني لا أنسى الرعشة التي عشتها في رحلة الثلاثمئة متر قبل أن أصطدم بالعمود. اللذّة التي لم أعرف يوماً ما يشبهها. تطلّ عليّ تلك الذكرى من القاع، فتعيد إحيائي. أشدّ قامتي، وأقول:

- الأمر يستحقّ المجازفة...

وأطير...

ثمّ عرفت أنّ مخاوفي تلك لم تكن أوهاماً. كان فيها شيءٌ من الحقيقة، أو هي الحقيقة كاملةً إذا أردت الدقّة.

حدث مرّةً أن أطلقوا نحوي قذيفة مدفع. تماماً كما أقول لك. لا تستغرب. قذيفة مدفع. سوء حظّي قادني يومها إلى مكانٍ كانوا يتبادلون فيه القصف لسببٍ ما، وكان الدم غزيراً في الأسفل. عرفت ذلك لأنّني شممت رائحته. حملها إلى أنفي البخار الكثيف المتصاعد منه.

مرّت القذيفة بجانبي. سمعت صفيرها، كما لفحتني حرارة النار المتقدة داخلها.. لكنّها لم تصبني.. أو لعلّني أنا الذي نجحت في تجنّبها بفضل جناحيّ اللّذين كانا فتيين آنذاك.

وهنا اكتشفت في نفسي واحدةً من الصفات التي طالما عبث الآخرين عليها، وسخرت منهم بسببها.

- جبان.

خاطبت نفسي بها، بدون خجل. هكذا. صريحةً، وعاريةً، وفاضحة. سددتها نحو قلبي مباشرةً، وصمت.

كان عليّ أن أكفّ عن ذلك.

الخوف لا يرحم يا أبو محارب.

طويت جناحيّ، وأغلقت قميصي عليهما.

اقتضى الأمر منّي أن أمارس نوعاً من المكر تجاه نفسي. لعبةً دنيئةً أقنعت نفسي من خلالها بأنّ ذلك لن يستمرّ إلى الأبد. سيأتي اليوم الذي سيتغيّر فيه كلّ شيء.

اليوم الذي أستيقظ فيه صباحاً قبل أن تشرق الشمس. أعدّ قهوتي، وأخرج بها إلى شرفة منزلي في الطابق العشرين. أداعب الوردة المتفتحة حديثاً في أحد الأصص من حولي. أفكّر في مربّي الورد الذي كانت تصنعه أمّي. وفي ماء الورد. وفي قلائد الورد.. أفكّر في أمّي واسمها الغريب. كم أحبّ اسمها! وأفكّر في زينب وساعتها الأوميغا التي تحرص عليها حرصها على روحها. وفي أبي ونكاته عنك. وفي المنفلوطي ونظراته وعبراته. وفي أشجار الكينا التي تستقبل أسراب الأطفال المجنّحين. وفي الأجنحة الملوّنة كما كانت أمّي تتمنّى.. وبالطبع أفكّر فيك أيضاً، ممتناً لك على ما فعلته لأجلي.

ثمّ أنتقل بعينيّ إلى الفضاء الواسع المفتوح أمامي.

وبلا تفكير، وبلا أدنى إحساس بالقلق، أو الارتباك، مع ابتسامةٍ يشرق بها وجهي، أفعلها.

أنزع قميصي عنّي، وأفرد جناحيّ. أعرّضهما للشمس والهواء بضع ثوانٍ، ثمّ أرمي بنفسي من الأعلى. يحملني الهواء بتيّاراته المتدفّقة المنعشة، وأنا أدندن أغنيةً أحبّها.. بالمناسبة، بفضلك بدأت أحبّ الأغاني العراقية. أستمع كثيراً لفاضل عوّاد، وحسين نعمة، وحميد منصور، وسيتا هاكوبيان.. ثمّ أمرّ بالواقفين على شرفاتهم، أو عند النوافذ في الأبنية المجاورة، لا يحملون في أيديهم بنادق أو مقصّاتٍ أو سواطير، ولا يتمترسون خلف المدافع. يروونني، فيبتسمون، فألوّح لهم، ويلوّحون لي متمنّين لي رياضةً صباحيّةً سعيدة.

غير أنّ هذا اليوم تأخّر كثيراً.. أو لم يأتِ قطّ.

انتبهت ذات صباح إلى أنّ هذين الجناحين اللّذين أمتلكهما أخذا يفقدان ريشهما. كنت معتاداً، منذ كنت هنا، على أن أجد صباح كلّ يوم ريشةً، أو ريشتين على فراشي، وكان ذلك طبيعياً؛ لأنّ الريش يتجدّد دائماً، فالقديم لا بدّ أن يخلي مكانه لريشٍ آخر أكثر شباباً وعافيةً، لكنّه فيما بعد أخذ يتساقط بطريقةٍ غير طبيعيّةٍ، وبغزارةٍ غير معهودة، وخلال عامٍ واحدٍ كانا جناحين أجردين تماماً. ثمّ أخذت العظام بالذوبان داخلهما، إلى أن تحوّلا إلى جلدتين كبيرتين تتدلّيان على ظهري، تلتها مرحلةٌ أخرى أخذ فيها حجم قطعتي الجلد هاتين يتضاءل شيئاً فشيئاً، إلى أن اختفتا تماماً.

ألم أقل لك إنّ جسدي امتصّهما؟ بالضبط. حدث الأمر هكذا فعلاً.. وبهذا القدر من الهدوء والبساطة.

مرّة أخرى تساءل الصغير عمّا إذا كان قد قال ذلك حقّاً، أو أنّها كانت محض أفكار خرساء حلّقت ضمن محيط رأسه، بدون أن تتجاوزه إلى الخارج. وحين أراد أن يتأكّد، صوّب نظره نحو وجه الشرطيّ. لم يعثر فيه على ما يشير إلى أنّه سمع شيئاً، فملامح وجهه لم تتغيّر. لم يكن ثمّة ما يدلّ على أنّه تأثّر بأيّ درجةٍ، مهما كانت طفيفةً، بالحديث الذي ظنّ أنّه قاله.

لكنّه لم يستسلم، وحاول ثانيةً. عاد إلى الحكاية يرويها له من جديد، مراعياً أن يضيف إليها بعض التفاصيل التي فاته أن يذكرها قبل قليل، والتي قدّر أنّها مؤثّرةٌ، ومثيرةٌ، وفارقةٌ، ويمكن أن تولّد رداً يستدلّ منه على أنّه كان يتكلّم حقّاً، وبصوتٍ مسموعٍ، وأنّه لم يكن يفكّر بينه وبين نفسه فقط.

ولأنّ محاولته الجديدة هذه لم تثمر شيئاً، وبقي الشرطيّ على جموده، وصمته، وظلمة عينيه، فقد صرف الصغير النظر نهائياً عن الأمر، مقرّراً أنّ الحكاية تافهة، ولا تستحقّ أن يرهق نفسه في البحث عن طريقةٍ لروايتها.

ثمّ إنّه لن يخسر شيئاً. ما الذي سيخسره طالما أنّه منذ البداية لم يكن ينوي أن يعود إليها؟

- أعتذر إليك.. لم يكن ينبغي أن أزعجك بهذا كلّه.

وأضاف:

- هل تعلم يا أبو محارب؟ أحياناً أشك في الحكاية برمّتها. يخيّل لي أنّها لم تحدث في يومٍ من الأيّام. لا أرى الأمر منطقياً. قد يكون حلماً لا غير، أو قد أكون مجنوناً، أو مريضاً.. أو على الأقلّ غبيّاً.. لست متأكّداً.

ابتسم.. وانتظر أن يسمع صفائح الحديد يخبط بعضها بعضاً، لكنّ الشرطيّ بقي على صمته. لم تستوقفه كلمة (غبيّ) التي جرت على لسانه. لقد استعملها متعمّداً؛ لأنّه يعلم أنّها كلمته الأثيرة، وقد يُضحكه أن يستمع إليها بلسانٍ غير لسانه.

لم يبدر عن الشرطي أيّ ردّ فعل.

عرف الصغير عندئذٍ أنّ الوقت حان للمغادرة.

كان عند الباب تقريباً عندما تناهى إلى أذنيه صرير عظام الشرطيّ. الصوت نفسه كلّما احتكّت عظامه ببعضها في أثناء الحركة، لكنّه هذه المرّة كان أقوى وأكثر حدّةً، كما كان له صدى ظلّ يتردّد بضع ثوانٍ قبل أن يبتلعه الصمت.

التفت الصغير خلفه فرأى رأس الشرطيّ مائلاً ومستنداً إلى الكتف الأيمن.

انقبض قلبه. اقترب من الشرطيّ. لاحظ أنّ جسده مرتخٍ تماماً. ظلمة عينيه أصبحت أكثر حلكةً. كما أنّ جلده الجافّ أخذ يتقشّر، واتّسعت الشروخ داخله.

ارتبك الصغير. لم يدر ماذا يفعل. تساءل عمّا إذا كان هذا الارتخاء في جسده مجرّد إغفاءةٍ طارئة غطّى فيها بحكم سنّه الطاعن لا أكثر. يعلم أنّ الأشخاص في عمره قد يغلبهم النوم في أيّ وقت، والرجل بلغ من العمر حدّاً يُتوقّع معه كلّ شيء.

أراد أن يتأكّد، فأمسكه من كتفه، وهزّه قليلاً.

- أبو محارب!

كانت حركةً خفيفةً جدّاً، نقرةً تقريباً، لكنّها كانت كافيةً لينهار جسده.

تداعى كتمثالٍ من الرمل.

بدأ ذلك من النقطة التي لمسه فيها، حيث غاصت إصبعه قليلاً، لا كما تغوص في لحمٍ متفسخ، بل كما تغوص في حفنة تراب ناعم، وعندما رفعها ترك مكانها أثراً على شكل ثقبٍ صغير. ثمّ سرعان ما بدأ الثقب بالاتساع، ليتحوّل إلى ما يشبه القمع الدوّار. رأى الصغير القمع، وهو يلفّ حول نفسه ملتهماً خلال ذلك كلّ ما في طريقه: الأكتاف، ثمّ الرقبة، ثمّ الرأس من الأعلى، ثمّ بقيّة أعضاء الجسد من الأسفل، وصولاً إلى أصابع القدمين...

لم يبقَ منه ما يدلّ على أنّه كان هنا...

انهار الشرطيّ تماماً. تحوّل إلى رماد...

وأثار ذلك زوبعةً من غبارٍ شملت المكان كلّه، وجعلت الصغير يغمض عينيه، ويشيح برأسه إلى الجهة الأخرى. كان المشهد غريباً حقّاً ومباغتاً. وكان من شأن ذلك أن يبثّ في قلبه الرعب، لكنّه حاول أن يظلّ متماسكاً، ومحتفظاً بأقصى ما يستطيع من الوعي واليقظة.

الغبار، والظلمة، والجفاف، والحرارة.

ثمّ شعر بشيءٍ يتدحرج تحت قدميه. انحنى إلى الأسفل، والتقطه. كانت كرةً صغيرةً خشنة الملمس. رؤوساً مدبّبةً كالمسامير. وكانت ثقيلةً جدّاً. قد تكون من الرصاص، أو الصوّان.

- أبو محارب المسكين! لو أنّهم أعطوه الفرصة ليتخلّص منها في تلك اللّحظة.. أن يصرخ وحسب.. لم يكن بحاجةٍ إلى أكثر من ذلك.

لم يعد يحتمل الحرارة الكاوية التي كانت تنبعث من الكرة، ولا أشواكها التي كانت تعضّه في يده، ولم يشأ في الوقت نفسه أن يرمي بها إلى الأرض. نفخ عليها بفمه، محاولاً أن يخلّصها ممّا علق بها من غبار، ثمّ وضعها برفقٍ على الطاولة، إلى جوار كأس الشاي الفارغة، والتفت إلى الأريكة حيث كان الشرطيّ جالساً.

لم يره طبعاً. لم ير سوى ملابسه.

سرواله الفضفاض والفانيلة نصف الكمّ كانا على الأريكة؛ أمّا المنشفة التي كانت على كتفه فسقطت على الأرض. وكانت كلّها وسط أكوامٍ من الرماد، وأوراق الشجر الصفراء اليابسة، وأعقاب السجائر القديمة، وفضلات الفئران، والقطط، والكلاب.

تناول الصغير السروال. نفضه. دخل بعض الغبار أنفه وعينيه، فأخذ يعطس. وبعد أن انتهت نوبة العطاس، عاد ينظر من جديد.

قماشٌ أبيض، لكنّه مئسخٌ، ومهترئ. بقعٌ كثيرة، وثقوبٌ، وخيوطٌ منسولةٌ متآكلةٌ، وآثار عثٍّ، كما لو أنّه متروكٌ هنا منذ ثلاثين عاماً...

أو أربعين...

أو خمسين...

*

ألقى بقطعة القماش القذرة من يده، واستدار ليغادر.

في هذه اللحظة تناهى إلى أذنيه صوتٌ قادمٌ من بعيد. ظنّه في البداية طفلاً يبكي، لكنّه عندما ركّز جيّداً أدرك أنّه كان مخطئاً في ظنّه.

عواء!

أحدهم كان يعوي...

ثم رجح لديه أنه الهواء المضغوط الحار الواخز نفسه الذي قيل إنه كان يحويه عندما انزلق من يد القابلة، وهي تحاول أن تخرجه من بطن أمه...

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025

إسلام أبو شكير:

كاتبٌ سوري.

من مؤلّفاته:

- 30<40، مجموعة قصص، 2009.
- استحواذ، مجموعة قصص، 2011.
- الحياة داخل كهف، مجموعة قصص، 2016.
- زجاج مطحون، رواية، 2016.
- أرملة وحيد القرن، مجموعة قصص، 2019.
- خفّة يد، رواية، 2020.

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025